ساحر الكتب

رواية ◄ دار العين للنشر

MADE IN CHINA

مي حمزة

ميلادُ هادئ

الإهداء

إلى مَهدِ أبنائي الذي احتضنهم الواحدَ تلوَ الآخَر،

إلى مَنْ شارَكني قصصًا لا حصـرَ لها،

إلى مُلْهِمي الذي نظرتُ إليه ذاتَ ليلةٍ فتسرَّبت هذه الحكاياتُ من طَرفِ قلمي، شكرًا لأنَّكَ كنتَ المكانَ الأنسبَ لصغاري، فلولاكَ لما هنئت ليلةً واحدةً ببساتين أحلامي.

الحكاية الأولى

الفصل الأول

أتساءل كثيرًا: "يا تُرى، من سأكون عندما أخرج من هذا الظلام المُحيط بي إلى نور ما يسمُّونها دنيا؟"

انتظرتُ طويلًا، ولا زلت أنتظر، تلك اللحظة التي سأرى فيها أيادي بشرية تمتد إلى هذا اللافراغ الضيِّق الذي تكسّرت ضلوعي بداخله، أن ينفجر هذا الكيس الشفّاف المُخادِع الذي يبدو رقيقًا، لكنه في الحقيقة مثل الأغلال الحديدية التي تقيِّدني وتمنعني من الحركة ومن الحرية.

أتلهّف إلى سَحبي، لخروجي إلى مكان مُضيء أستطيع أن أميِّز فيه الألوان والأشكال، أن أعرف من أين تأتي هذه الأصوات الصاخبة والهادئة، المزعجة والممتعة، أن أدرك أسباب التباين وأحدِّد قوانين الاختلاف.

أما الروائح التي تصلني كحُلمٍ منذ بداية تكويني، ترسم خيالات في عقلي وتُداعب روحي فهذا أمر آخر، يستحق التأمُّل طويلًا حينما تحين الفرصة بلقاء مصادره.

بالأمس شعرتُ بحركة مباغتة انقلبتُ على أثرها رأسًا على عقب.. ظننتُ أن الموعد قد حان؛ خصوصًا أنني سمعت هدير مُحرِّك قيل عنه إنه محرك مَزكّبة، وتحديدًا مركبة اسمها سيارة. تلك السيارة كانت تملك زئيرًا قويًا منعني من سماع أي شيء آخر طوال رحلتي إلى هذا المكان الجديد، الذي

شعرت بهدوء وراحة يغمرانني فور وصولي إليه.

هنا النسيم عليل، ورائحة الهواء ذكية، أما أصوات زقزقة العصافير فهي أروع كثيرًا من أصوات العاملين الذين يثرثرون تارةً في حماسة شديدة، وتارةً في مللٍ مُذقِع.

يختلف القصر هنا في هذه المدينة التي يطلقون عليها اسم القاهرة بحديقته الغنّاء كثيرًا عن المصنع الذي تم تصنيعي فيه في شوارع ضيقة وخانقة في شوزهو(1)، وعن المخزن الذي مكثت فيه أمدًا ليس بقصير في ميناء مدينة الإسكندرية.

هذه حقيقةٌ لا شكّ فيها ولا حاجة لي لإثبات صحتها، رغم عدم رؤيتي للقصر حتى الآن، فأنا في داخل صندوقي كالضرير الذي يملك بصيرةً ولا يملك بصرًا.

لكنني متأكد من حَدسِي، وستثبت الأيام صدق إحساسي.

فبصيرتي ذاتها جعلتني أفرّق بين رائحة الصين حيث نشأتُ، وبين رائحة مصر التي انتقلتُ إليها منذ بضعة أسابيع عن طريق رحلة بحرية طويلة وشاقّة لم أسلَم من تبعاتها حتى الآن. لكنه ثقل وشقاء جعل كل الشقاء بعده هيّنًا، أو هذا ما أرغب به.

خرج شخصان من السيارة التي كانت تحملنا جميعًا، وقد تعلّمتُ في المصنع أن هناك نوعين من البشر: أنثى وذكر، وقد استطعتُ بعد تمرينات عديدة أن أعرف الفرق بينهما: فالأنثى جلدها ناعم وقبضتها هيّنة مهما حاولَتْ أن تكون قوية، على

عكس الرجل ذي الكفوف المشقّقة، والقبضة التي تشطر أخشابي إلى شطرين دون رحمةٍ ولا رأفة.

كما أن للأنثى صوتًا مهما كان عاليًا لا يستطيع أن يثير فيّ نفسي الفزع أو الخوف، مزعجًا ربما لكنه ليس مخيفًا، على عكس الرجال القادرين على جعل كل مسمار فيّ يرتجف أينما أطلقوا عنان صراخهم، أو حتى رفعوا أصواتهم بعض الشيء باللعنات والشتائم، قبل أن يرفعوا أياديهم بالصفع واللّكمات.

رائحة النساء خفيفة، هادئة، وجميلة في الصباح معظم الوقت، تتحول إلى رائحة كريهة متى اختلطت بعرقهنّ المُنزلق من فروة رءوسهنّ نزولًا لظهورهنّ، مُتجمّعًا حول أطراف حمّالات الصدور الرخيصة. أما الرجال فلا تختلف رائحتهم في الصباح عن المساء: نَتِنَة، وتزيد نتانةً عندما تُضاف اليها رائحة زيوت التشحيم والتلميع ونشارة الأخشاب المشذّبة.

لم أتبيّن أي شيء من هؤلاء المستقلّين للسيارة معي، لم يلمسوني، ولم أشمّ لهم رائحة في هذا الفضاء الواسع المعبّق برائحة الخُزامَى. فقط أصواتهم هي التي سمعتها حين وصلنا إلى وجهتنا، وتأكدتُ من كونهم رجلًا وامرأة؛ حيث كانا يتحدثان بأصوات جامدة مثل أصوات ممثلي المسلسلات المُدبلجة التي يحب العاملون مشاهدتها في المتجر الذي كنت معروضًا به:

- انتظر هنا يا جورج، سأرسل صوفي لتحمل المهد إلى

غرفة بيتر.

- لن أسمّي الولد بيتر.

- سأسمّيه بيتر رغمًا عن أنف الجميع.

- أظنُّنا انتهينا من هذا الأمر يا نتالي.

لم تُجب على جملته الأخيرة رغم ثقتي في أنها سمعتها؛ فقد كان التجاهل واضحًا من صدى صوت خطواتها المتحدّية التي اتخذتها بعيدًا عن السيارة، تدبُّ بعصبية وثقل صعودًا على درجات سلم، وتنادي بلهجة آمرة على صوفي بلغة أجنبية متعالية تختلف عن اللغة التي أتقنتُها في المصنع، وعن تلك الأخرى التي تعلمتُها بعد أن ركبتُ البحر في رحلتي من الصين إلى مصر، عندما وصلت إلى مخزن المحل الذي يتكلم فيه الجميع بلغة اسمها العربية، وكان يتحدث بها منذ ثوانٍ هؤلاء الأغراب الجُدُد.

صوتُها أخافني.. لم يكن عاليًا، بل حازمًا وغاضبًا في آنٍ.. وأدركت أن النساء أيضًا من الممكن أن يكنّ لديهن أصواتٌ مخيفةٌ تمامًا كالرجال.

هرولت صوفي تجيب بصوتٍ واهنٍ ومنخفضٍ لم أستطع سَفعه، كان مجرد همهمةٍ غير مفهومة، أو ربما أنا الذي لم أكن أعرف هذه اللغة بعد.

لم يكن صوتُها هو فقط الواهن، بل يداها أيضًا كانتا ضعيفتين جدًا؛ فقد أفلتتني وهي تحاول رفعي من صندوق

السيارة، وعلى الرغم من عدم خطورة ارتطامي بأرضية الصندوق، فإنّ محاولتها في عدم إسقاطي وتشبثُها بطرف علبتي المصنوعة من الورق المقوّى، قد أحدثت شقًّا طوليًا في تغليفي، صدعًا هيّنًا أتاح لي رؤية مشهد بديع لقصرٍ فخمٍ سأبدأ حياتي في إحدى غُرَفه.

ما حدث كان مصيبة في نظر صوفي التي ارتعبث من رد فعل سيدتها المبالغ فيه دائمًا، كانت تدمدم بكلماتٍ لم أفهم معناها، لكني شعرت بوقْعِها على ارتجافة أصابعها ودقات قلبها، الذي سأفهم سبب ارتجافتهما خلال الأيام القادمة؛ عندما أدرك أن سيدتها تضخّم الأخطاء وتقزّم الأعمال الجيدة. عندها خلل في تقييم أعمال الناس جميعًا ولكن بنسبٍ متفاوتة، وصوفي تحصل دائمًا على نصيب الأسد من التوبيخ والتأنيب على التوافه؛ فنتالي رغم عدم توافقها مع زوجة عمّها، والتي هي أيضًا أمُّ زوجها، فإنها - احترامًا للرجلين، وللأول تحديدًا - لا تستطيع إظهار غضبها في وجه السيدة الكبيرة؛ وبالتالي كانت تجد سلواها في صوفي لتنفث نيرانها.

وبعيدًا عن كون هذا الحادث يُعدُّ مُروِّعًا لصوفي، وقد يترتب عليه عواقب وخيمة، فقد كان بالنسبة إليّ واحدًا من الحوادث الأسعد على الإطلاق؛ حيث أتاح لي للمرة الأولى، وربما الأخيرة، مشاهدة قصر حقيقي، أو بالأحرى واجهة قصرٍ شامخة بين أشجارٍ وارفة، لا تستطيع أن تميّز إن كان القصر هو الذي يظلل الأشجار، أم أن الأشجار هي التي تُلقي

بظلالها عليه. كان منظرًا مَهِيبًا لن ينمحي أبدًا من ذاكرتي الفتيّة.

رفعتني هذه المرة صوفي بحرصٍ أكثر بعد أن استطاعت تقييم وزني الحقيقي، أمسكتني بقوة أكبر، استشعرتُها من خلال قبضتها التي استنفرت كل عضلة لتساعدها على رفع صندوقي العنيد، الذي تحدّته بعد أن ظنت أن انفلاتته الأولى كانت عصيانًا منه عليها. تعجبت لماذا يظن بشري عاقل أن هناك جمادًا قادرًا على إزعاجه بقصد أو حتى بدون! مساكين هؤلاء البشر يختلقون عداواتٍ وهميةً من فراغ الطبيعة الحَنُون، شعرتُ بتعاطف ناحية صوفي التي كان لونها في لون الآبَنُوس، لكنه كان تعاطفًا منقوصًا.

حملتني هذه المرة بذراعين مفرودتين من أقصى حدودي إلى أقصاها، كشخصٍ مصلوب، متألم، ومتحمّل ألمه. أنفاسها عالية، تحاول جاهدة أن تُبقي على قوةٍ استحضرَتْها في غفلة من الزمن، وهاهي تتسرب منها كلما خطت خطوة في اتجاه درجات السلم، التي صعدت عليها نتالي منذ ثوانٍ بسرعة دون عناء. كدتُ أنفلت من ذراعيها مرة أخرى، لكنها أسندتني بركبتها التي ارتفعت في ردّة فعلٍ سريعة لإنقاذ الموقف. عدّلَت من موضع كفّيها، واستطعتُ من خلال الصدع سابق الذِّكر أن أرى السُّلّم ونحن نرتفع: سبع درجات رخامية بيضاء، وفي نهايتها باب ضخم من خشب البَلُّوط الملمّع بعناية فائقة. اعترتني الحميمية، وصحتُ وأنا أدلف من حلقه: "مرحبًا". انتظرتُ الرد، لكنه لم يُجبني. شعرت بإحراجٍ شديد. لماذا لم

يُجِبني؟ هل أصابه الكِبَر في سمعه فما عاد يستطيع سماع ما يدور حوله؟ أم ربما الكِبر والتعالي هو ما منعه من الرد عليّ؟

كبريائي هداني لتصديق الاحتمال الأول؛ فالسيد هنا منذ زمن، رغم لمعته الأرستقراطية فإنه يبدو عليه أنه طعن في السِّنّ.

وضعتني صوفي على الأرض في ردهة المنزل لتلتقط أنفاسها. كانت تلهث ككلب ركض لألف ميل يطارد ظله. ووجدت نفسي في فضاء واسع من الجمال والأناقة. في صدر البهو كان يجلس مَهيبًا بيانو قائم ضخم مصنوع من خشب القَيقَب الأسود المصقول، يتوسط صالةً يكسو أرضيتها سجّاد من الحرير الإيراني لا أحتاج إلى لمسه لأشعر بنعومته، مزيج بين الأبيض والسماوي، وتظلله عروقٌ من اللون الوردي رسمت أزهارًا في غاية الجمال.

صالة طعام على اليمين بها طاولة من الخشب المطعّم بالنحاس اللامع، ممتدة الى أبعد مما استطعت رؤيتها، أظن أنها على كل حال من الأحوال تكفي ما لا يقلُّ عن اثني عشر شخصًا وأكثر.

أما على اليسار، فقد كان هناك مجلس من كرسيين مُذهّبين أمام مدفأة رخامية مكدّس فوقها عشرات التماثيل لا أعرف منهم أي شخص. كنت أبحث بلهفةٍ عن تمثالٍ لإلهي(2) لأطمئنّ في حضرته لكني لم أجده. تماثيل مُجنّحة مطلية بالذهب، وشمعدانات فضية تقف في شموخ عساكر مجندة.

ومزهرية بها ريشات نعام.

نظرت لأعلى قليلًا فوجدت معلقًا على الحائط، إطارًا لامعًا بمزيج من الفضي والذهبي، يحمل صورة رجل وامرأة يرتديان عباءاتٍ بيضاء حريرية، مُوشّاة بخيوط طرّزت القماش الناعم بصلبانٍ من نفس لون التيجان الذهبي الذي أضاء رءوسهما.

كانا في الصورة ينظران بأعينٍ تُعاهِد بعضها على الوُدّ والتفاهم. كنت هائمًا في جمال عينَي المرأة الناظرة إلى حبيبها، أفكر في كلمات الحب التي نطق بها الحبيبان لبعضهما البعض لحظة أن أصبحا معًا. على بُعد بضعة إنشات عُلّق إطاران آخران، كل منهما به صورة تجمع رجلًا وامرأة مختلفين، أكبر سِنًّا من هؤلاء الموجودين في المنتصف، وإن كانت إحدى الصورتين تبدو أقدم، والشخصان اللذان فيها أكثر شبابًا من الآخرين. لكن الرجلين في الصورتان يشبهان بعض كثيرًا.

صرخة ثانية من المرأة ذاتها التي كانت تنادي صوفي منذ قليل أخرجتني من تأملي؛ كانت تنادي هذه المرة زوجها الذي كان يرتقي السلم الداخلي صعودًا إلى الطابق العلوي:

- جووورج، كيف تظن أن هذه المسكينة الضعيفة ستتمكّن من حمل المَهْد عبرَ السلّم وحدها؟ هل أحضرناها من بلدتها لنمارس عليها الظلم؟ تعالَ وساعدها، أم تظن أني أنا التي سأحمل معها المهد وأنا هكذا؟

كانت تشير إلى بطنها المنتفخ، والذي لم أشكّ للحظةٍ أن بداخله كائنًا مثلي ينتظر لحظة تحرُّره.

جاء جورج متأففًا، وقد لاحظت أنه الرجل الموجود في الإطار الأوسط:

- نتالي، ألا تستطيعين الصبر؟ لماذا ترغبين طوال الوقت في أن تأمُري وتُطاعي؟ ضقتُ ذرعًا منكِ يا عزيزتي!

باستهزاءٍ أجابته:

- وما فائدة عزيزتي إذا؟

نظرتُ إلي عينيها لأتأكد من ظني، كانت العينان تشبهان عينَي المرأة الموجودة في الصورة لكنهما منتفختان أكثر، حولهما هالات سوداء، ويعلوهما حاجبان أكثر شمكًا. لا زالت ملامحها جميلة، لكنها ملامح مصابة بالتوتر، وربما الحزن.

ظهر رجل آخر ذو عينين زجاجيتين لا تستطيع تحديد لونهما، وكأن عليهما غيمةً بيضاءَ حجبت لونهما الأصلي، يعلوهما حاجبٌ كثّ، وتحدد ذقنَه لحيةٌ مهذبة فِضيّة، يجرُّ أقدامه وترتعش يداه، مبتسمًا رغم شعوري بأن احدوداب ظهره يزعجه، ثم قال:

- حبيبتي، هدّئي من رَوْعك، سأساعدها أنا.

كنت غير واثقٍ أبدًا من أن هذا الرجل يمكن أن يقدم أي مساعدة فيما يخص حملي، لكن كان لظهوره في المشهد أثر عظيم في تهدئة الأجواء المشحونة بالتوتر والغضب.

ابتسمت نتالي ولانت قسماتها وهي تجيب على الرجل الطاعن في السّنّ:

- تصرَّ يا كريس على أن تدلّل ابنك حتى وهو على وشك أن يصير أبًا.

وضع كريس قبلةً على خدّ نتالي وقال في حنان أبوي:

- سأدلّل كليكما إلى الأبد.

في هذه اللحظة ظهرت امرأةٌ أخرى ممشوقة القوام، شعرها ثلجي ومقصوص بعناية، بالكاد تلامس أطرافه كتفيها، عيناها لونهما أسود، ظهرت لمعتهما الشديدة عند انعكاسهما على بشرتها البيضاء. اقتربَت من كريس في دلالٍ أنثويٍّ طاغٍ وتأبّطت ذراعيه:

- ستدلل كليهما؟؟ وأنا لا وجود لي؟

- ماري، أنتِ الدلال ذاته، فما أضعف حيلتي في تدليل الدلال!

- تغلبني بكلماتك يا حبيبي دائمًا.

نظرت نتالي إلى ماري نظرةً ذات مغزى، وإن حاولت عدم إظهار معناها وعدم إخفائه في الوقت ذاته، كانت تحاول أن تقول بها: "كفاكِ غُنجًا أيتها الحيزبون المتصابية!".

صعدت نتالي إلى الأعلى وهي تسند ظهرها بإحدى يديها وبالثانية تستند على درابزين السلم، بينما كان جورج يتجه إليّ ليحملني بعد أن لاحظ وفهم نظرة زوجته لوالدته، كفّاهُ

قابضتان على الهواء وذراعاة تتأرجحان بجانبه محاولًا أن يتمالك أعصابه التي على وشك الانفجار.

وامتدت يداه ويدا صوفي لتحملاني في نفس اللحظة التي صفعت فيها نتالي باب غرفتها بكل ما أوتيت من قوةٍ وحقدٍ دفين.

آه، ما هذه القسوة التي يُعامَل بها الجماد في هذا المنزل! يا تُرى كيف ستصير أيامي؟

---

(1) مدينة في جمهورية الصين الشعبية، تتبع جيانغسو، وتشتهر بصناعة الأخشاب.

(2) يقصد بوذا.

الفصل الثاني

أخيرًا تحقق الحُلم وجاءت ساعة الحرية: تم إخراجي من صندوق التغليف.

أصبحث منذ هذه اللحظة مهدًا لرضيعٍ تنتظره هذه العائلة الأرستقراطية.. يا إلهي، تُرى كيف سيكون طفلٌ وُلِدَ من رَحِم هذه المرأة التي لا تكفُّ عن الصراخ، وهذا الرجل السّمِج المدلَّل ذي الوجه الجامد والعيون الزرقاء؟

تُقسم المرأة أنها ستسميه بيتر، ويجيب الرجل بسخافة منقطعة النظير أن هذا لن يحدث أبدًا. تضيف أنه لا أحد سيتدخل في تسمية ابنها، فهمت الآن أنها ترمي إلى والدته بكلامها، لا أظنها تقصد الرجل المسن؛ فقد بات الأمر ملحوظًا أنها تحبه ويحبها، في حين أن صراعًا باردًا قائمٌ بينها وبين ماري.

أما أنا فلم أمِل لإحداهما على حساب الأخرى، لم أرتَخ لأيٍّ منهما، وأعجبتني فكرة انتظار نتيجة هذا الصراع. فكرتُ لو أن "الشقيق المعتم"(3) يستطيع أن يدير رهانًا على هذه المباراة، أظن أنني سأراهن على فوز نتالي؛ فهي في نظري امرأة لا يُمكن قهرها ولا تقبل الاستسلام.

بينما ماري شخصية غريبة؛ في لحظةٍ تهيم فيها حبًا، وفي اللحظة الثانية تشعر بخبثها وتنكمش رعبًا من نظراتها.

أما جورج فهو أخرق يدمدم دون قدرة على تنفيذ أي

تهديد، أو حتى مواجهة غضب زوجته سوى بالطريقة ذاتها التي يواجه بها الشجر الأعاصير؛ لا أعرف من أين علمت كيف تواجه الأشجار الأعاصير، لكن هناك ذكرى مشوّشة تأتيني كل فترة تُشعرني بأنني حُييت في قالب آخر قبل هذا الذي أصبحته الآن.

أعرف أنه عندما يموت الشيء تحلُّ روحه في جسد شيء آخر وتسكنها، لكنني ككل شيء لا يمكنني معرفة ما كنته من قبل ولا ماذا سأكون من بعد(4).

وضعوني أخيرًا في غرفة هادئة بعيدًا عن صخبهم، وكانت الخادمة الهزيلة الذليلة التي لا أرى في عينيها طوال الوقت سوى الدهشة الممتلئة بالحيرة والمجردة من الفهم والأمان على حدٍّ سواء، تحجب عني رؤية المكان الذي سأعيش فيه، فاردةً شرشفًا أبيض ناعمًا تحاول دسّ أطرافه بين جوانب مرتبتي.

وحين انتهت من عملها وانسحبت في حركةٍ آليّة، انكشفت أمامي الجنة، وأظنُّني لامست أعتاب النيرفانا(5) وأنا أنظر في نشوةٍ إلى أركان غرفتي الفسيحة ذات الحوائط البيضاء العالية؛ شعرت بأني جزءٌ من كُلّ، جميعنا أبيض وإن اختلفت موادُّ خَلْقنا، جميعنا نحاول الوصول.

"قليلون مَن يبلغون الضفة الأخرى.

الآخرون يظلون يركضون على هذه الضفة.

لكن أولئك الذين عُلّموا الحقيقة فاتّبَعوها

سيتخطّون أرض الموت

مهما كان العبور عسيرًا."(6).

قطعَت حبلَ أفكاري نتالي العَبُوس، التي دخلت غرفتي كتسونامي لتلقي نظرة على المهد الجديد، عليّ أنا "مهدي الأبيض" أو كما تُقِشّ باللغة الإنجليزية: "My White Crib".

كانت تصرخ: "لا فائدة من الاعتماد عليك أبدًا يا جورج؛ لا تملك إلا أنّ تخذلني دائمًا وأبدًا بأعمال غير متقنة"، هرول جورج في أعقابها إلى الغرفة متسائلًا: "ماذا حدث يا نتالي؟"، في عتاب حازم أردفت: "أبلغتك سابقًا أنني أريد وضع المهد عند منتصف الحائط تمامًا، لكنك كالعادة لا تهتم برغباتي ووضعته في ركن الغرفة القَصيّ.."، طاويةً ذراعيها أمام صدرها أكملت جملتها في تَحدٍّ: "هل هذه أوامر والدتك؟".

أجاب الرجل وقد فرغ صبره نافثًا زفرة قوية: "لا فائدة فيكِ أنتِ يا نتالي؛ حتى وإن صنعتُ لكِ عقدًا من نجمات السماء ستتهمينني بالتقصير، وأن هناك نجمةً وحيدةً يتيمة أقل لمعانًا من أخواتها، وأن أمي هي سبب عدم لمعانها!".

بتهكّمٍ ضحكت المرأة التي أثار صوتها حنقي: "أنت مقصّر بالفعل يا زوجي الحبيب" رفعت حاجبها تحاول التأكّد من أنه يفهم ما تلمح إليه، لكنه تجاهلها.

أشاح بيديه وقال في ضجرٍ من كرّر الحديث ألف مرة: أوَلم

تيأسي؟"، أجابت في تحدٍّ: "سأنفذ رغبتي حتى وإن كان آخر يوم في عمري".

قال جورج وقد استعاد بعضًا من هدوئه: "لا أفهم لماذا تكرهين هذا البيت هكذا؟"، أجابته بتوتر: "أكره البيت وأصبحت أكره البلدة كلها"، سألها وهو متوجسٌ خيفةً من أن تكون والدته على مقربة منهم فتسمع الحديث: "أفهم من هذا أن فكرة السفر لا زالت تدور في عقلك؟"، في إصرارٍ قالت: "استخدم اللفظ الصحيح إذا سمحت: الهجرة".

كانت نتالي تنطق حروف الكلمة الأخيرة متقطعة، بتَحدٍّ وتصميم.

في حين توتر صوت جورج وهو يجيبه: "لا أفهم كيف تتعاملين مع الهجرة بهذه البساطة، بل وتشعرين أنها الخلاص!".

بإجابةٍ تحمل أكثر من معنى قالت: "إنها كذلك يا عزيزي".

قال جورج في صوتٍ ملأه الألم هذه المرة: "لا أصدق أنك تتنازلين بهذه البساطة عن ذكرياتِ طفولتكِ وماضيكِ، واستعدادك التام للتخلّي عنهما! لماذا أنت ساخطةٌ هكذا؟".

أجابته نتالي موضحة: "أنا لست ساخطةً، ولكني خائفة، والفرق بين هذه وتلك كبير" كان صوتها يختنق والدموع تترقرق في عينيها، فربّت جورج على كتفها في حنوّ: "لماذا تظنين أني لا أشعر بكِ يا حبيبتي؟".

أجابته وقد استعادت قوّتها وصَلَفَها: "لأنها الحقيقة. هنا مات أبي وأمي في حادثٍ على الأسفلت ذاته، الذي تم سحل أخي عليه عندما حاول كشف فساد المسئولين في شركته. من هنا هرب أصدقائي وأحبّائي الواحد تلو الآخر، كُلٌّ من أمرٍ مختلف، ولسببٍ مختلف. واجه الحقيقة يا جورج، لقد تبلّدت مشاعرك من كثرة ما رأيتَ من بشاعات صبغت الحياة بالأسود، فأصبح الرماديّ لونًا جميلًا في نظرك، أما أنا فلا؛ لا زلتُ أرى الرمادي لونًا بشعًا، وأريد أن يتعلم أبنائي أن في الكون ألوانًا عديدة، غير لون سحابة الدُّخَان والتلوُّث التي تغطي بلادنا".

كشخصٍ تائهٍ وجد طريقه بعد ضياع أجاب جورج: "أرأيتِ؟ تقولين بلادنا، وستظلين تفعلين من دون وعي"، أجابت نتالي وكأنها ضُبِطَت بجرمٍ مشهود: "جورج، أنت لم ترَ وجهك عندما حدثتني منذ أسابيع عن هذا الرجل الذي يبيع الجثث المستخرجة من المقابر، هل لاحظت أنك كنت تضحك؟!"، مستنكرًا ومتعرقًا أجابها: "لم أكن أضحك يا نتالي".

"لا، كنت تضحك وتأكل وكأن هذا الأمر عاديٌ، لكنك لم تعلم أني حلمت هذه الليلة بنفسي وأنا في المقبرة، وعشرات الأموات يتمسّكون برِجلي يطلبون العون لأنهم لا يستطيعون الوصول إلى الملكوت. استيقظتُ لأجد ابنَك يركُلُني في بطني؛ يذكّرني أن هناك شخصًا آخر معرّضًا للخطر غيري وغير جثتي عندما سأموت".

سألها جورج حالمًا: "لماذا لا نفكر في تطهير بلدنا؟".

ضاحكة بتوتر قالت نتالي: "شخف، لن يتطهر العالم أبدًا إلا بعد زواله، وكان علينا أن نساعد في زواله بعدم الإنجاب".

"حاولنا عدم الإنجاب، لكنّ الله أراد أن يعلّمنا درسًا: لا عناد مع الربّ".

تداخل مع صوت جورج صوتٌ أنثويّ آخر، لكنه ليس صوت نتالي ولا صوت صوفي هذه المرة والتي كانت قد انسحبت من الغرفة منذ وقتٍ قصير، كان الصوت يقول:

"أووووه، أحب هذا المقطع كثيرًا، ستقول له بصوتٍ عالٍ دراميّ أوبراليّ: حدث ما حدث وبيتر أصبح كائنًا مكتملًا على وشك الخروج إلى هذا العالم الكريه في أي وقت. وسيسكت هو ولن يجادل بخصوص الاسم هذه المرة؛ لأن أمه أخبرته أن هرمونات الحمل تجعل النساء كالثيران المستثارة، التي يُستحسن لك الهروب من أمامها حفاظًا على حياتك".

كان تشتيت انتباهي في هذه اللحظة بصوتٍ ثالثٍ في غرفة بها شخصان فقط، أمرًا لم أتوقعه في البداية، إلى أن رأيت مشبك الشعر الملقى على الأرض. قال الصوت في غُنْج مرةً أخرى بنبرةٍ أنثويةٍ مثيرة: "هاي يا أنت، اسمي الآنسة كوكو، ولن أقبل بأن ترفع بيننا الألقاب".

انسحب جورج من الغرفة، فأردفت كوكو في انتصارٍ وزهو: "أرأيت؟ انسحب مثلما أخبرتك دون مزيد من الجدال".

ابتسمتُ ولم أجد ردًا مناسبًا؛ فأمام الجمال تُلجَّم جميع

الألسنة، فما بالُكم بلسانٍ لم يَعتدِ الكلام مع الغير من الأساس؟

كانت كوكو عصفورة من النحاس الخالص، بالأحرى "رأس" عصفورة من النحاس الخالص، وجسدها عبارة عن مشبك شعر رفيع وهزيل، لا يتناسب أبدًا مع جمال وجهها، لكنني لم أهتمّ بهذا الجسد حينما رأيت الجوهرتين الدقيقتين من الزَّبَرْجَد الأخضر اللامعتين في عينيها، هاتين العينين اللتين ألقتا تعويذةً سحريةً على جمودي فبثّت فيّ الحياة.

أسرتني فنسيث الصخب الدائر حولنا وأنا أتأمل هذه المغرورة الجميلة، إلى أن أصابني ألم مباغت أعادني الى أرض الغرفة: كانت نتالي تنزع بعنفٍ شديدٍ عن جبيني الملصق الذي كُتِبَ عليه اسمي.

تم محو اسمي وهُويّتي في حركة غوغائية مؤلمة. كالوحش الكاسر أخذت نتالي تنفث نيران أنفاسها، في غرفةٍ كانت منذ لحظاتٍ واحة الخلاص التي حلمتُ بالوصول إليها كثيرًا.

وبألمٍ غير محتملٍ وجهدٍ مُضنٍ، لملمتُ بقايا كرامتي المهدرة ووجّهت انتباهي المشتّت إلى الجميلة كوكو؛ لكي أقدّم لها نفسي وأخبرها أنني سأظل مهدي الأبيض مهما حاولوا محو اسمي.

لكنّ صوفي كانت قد عادت وسبقتني والتقطت كوكو من الأرض، ودسّت بها في شعرها المجعد الذى أخفى المشبك

كسجين في زنزانة من الأشواك السوداء، إلا أن زبَزجَد عينيها اللامعتين، ومنقارها المثير الذي توارى خجلًا مني، كانت تُخفي بداخلها ألقَ اللقاءِ الأول، هذا اللقاء الذي أشعل بداخلي نيرانًا هادئة، دافئة، تشعُّ أملًا وحياة.

---

(3) مواطن من هونغ كونغ يُلقب بـ "لي" ويُطلق عليه اسم "الشقيق المعتم"، يدير شبكة مراهنات عبر الإنترنت للأماكن الواقعة جنوب وشرق الصين. يُذكَر أن هذا النوع من المراهنات يُعدُّ محظورًا في مختلف أنحاء الصين، باستثناء منطقة ماكاو التي تُعدُّ مقر كازينوهات المقامرة في البلاد. تمكنت السلطات الصينية من تفكيك هذه الشبكة بعد أن بلغ حجم نشاطها من المراهنات التي طرحتها حول نتائج مباريات مونديال جنوب إفريقيا نحو 14.5 مليار دولار.

(4) التناسخ في البوذية هو انتقال الروح من جسد إلى جسد.

(5) يمثل الحالة النهائية للإفراج والخلاص، والتحرر من إعادة الميلاد المتكرر.

(6) كتاب بوذا المقدس.

الفصل الثالث

مرّت ليلتي الأولى خارج صندوقي هادئةً إلى حدٍّ كبيرٍ، باستثناء القليل من أصوات صدَرَتْ عن أخشابي التي ضغطَت عليها البراغي بقوة، وبعض الأصوات الهامسة للهواء وهو يداعب أغصان الأشجار خارج غرفتي كعشيقين يختلسان لحظاتٍ سعيدةً بعيدًا عن عيون الحاقدين.

لن أنكر أن السعادة بميلادي ساعدتني على النوم سريعًا. وكان أيضًا الخدَر الذي أصابني بعد نزع هُويّتي، والخَدَر الآخر الذي أصابني بسبب نظرات كوكو، قد أسهما في هدوء نومي.

وكان للصباح صورة مختلفة عن تلك الصباحات التي اعتدتُ عليها سابقًا؛ فأشعّة الشمس الدافئة قد تسلّلت من النافذة المواجهة لي في منظرٍ أخّاذ، ذكّرني فور استيقاظي بعينَي كوكو.. تُرى، كيف قضت ليلتها؟

هل كانت تفكر فيّ مثلما فكّرتُ فيها؟

هل أصابها الخدَرُ ذاته؟

وهل سأراها مرةً أخرى؟

وقبل أن أستمر في طرح أسئلتي التي لم أظن نفسي سأفكر فيها قَطُّ، سمعتُ صوتها الغَنِج، بعد أن كانت صوفي قد دخلت بسرعة إلى الغرفة لتعطيرها برائحةٍ خلّابة فاحت من رذاذٍ هاديٍ كانت ترشُّه في الهواء. قالت كوكو: "مرحبًا أيها

الغريب"، تلعثمث، وأجبتُها بصوتٍ أظهرني بمظهر الغبي:

"مرحبًا يا كو... مرحبًا آنسة... مرحبًا آنسة كوكو"، جلجلت ضحكاتها من بين منقارها الدقيق: "أووووه، يبدو لي أنك لم تتحدث إلى آنسات من قبل أيها الوسيم". كان لفظ التعجب الممدود "أوووه" هو لازمتها التي سأذوب كدهان مسكوب على سطح أملس كلما أسمعه.

ورغم إعجابي بفطنتها وذكائها سألتها متحرجًا: "ما الذي أوحى لكِ بهذا؟ فأنا لي صديقات بعدد الشعيرات التي في الرءوس التي التصقتِ بها يا آنسة!".

آخ، ما هذا الذي أقوله! ما هذا الغباء الذي أتفوّه به! هل يوجد جميلة تقبل بمثل هذه الجملة الحمقاء التي أطلقتُها الآن كقذيفةٍ من لهب، في وجه هذه الرقيقة التي تحاول تبادل أطراف الحديث معي؟! إنني كمَن يُذكّرها بضآلة قيمتها!

كان زَبَرْجَدُ عينيها تشوبه حُمرة لا أعرف من أين أتت، ونُحاسُها الأصفر كان بلون الدم وهي تجيبني:

- في حياتي لم ألمس سوى شعيرات صوفي، لقد كنت وسأظل هديةً غالية.

أشاحت وجهها عني، ووقف الزمن بيننا للحظات، كنت أتمنى فيها أن تضربني صاعقة من السماء وتشقني نصفين، وكانت كوكو تتمنى لو جاءت صوفي والتقطتها.

كانت الفرصة أمامي إما أن أُصلِح الموقف وأكسب قلبها إلى

الأبد، أو أترك الأمر مُعلّقًا كما هو وأخسرها أيضًا إلى الأبد.

خرج صوتي هذه المرة ثابتًا مُقنِعًا:

- آنسة كوكو، اسمحي لي بتوضيح كلماتي؛ فأنا لم أقصد الإهانة، بل على العكس تمامًا؛ فأنا لا أرى على الأرض مشبك شعر يُمكن أن يتوّجَ رأسَ امرأةٍ جميلةٍ غيرك؛ ولذلك كنت أراهن نفسي على أن النساء جميعهن قد يقاتلن واحدةً تلو الأخرى للحصول عليكِ، ولهذا عددتُ الشعيرات التي لامستِها بالمليارات، وإن كنتُ بكل تأكيد قد بالغتُ قليلًا؛ فأنا لا أملك صديقاتٍ بالمليارات، ولا حتى بالعشرات.. وبالتالي يمكنك أيتها الفريدة أن تدعوني من اليوم فصاعدًا، وبما أنهم نزعوا هُويّتي بلا رحمة أو رأفة، باسم مهدي المُدّعي بدلًا من مهدي الأبيض، أو فلتجعليه مهدي المُدّعي الأبيض، أو الأبيض المُدّعي، كما يحلو لكِ.

هذه المرة ضحكت كوكو بعفوية أذابت قلبي الذي لم أكن أعلم أنني أملكه ولا زلت لا أعرف أين موقعه لكنني شعرت بطبوله تقرع في فرح، وتدحرجت هي بدورها لتقترب مني. وقالت: "بما أننا سنكون جيرانًا وسنضطر آسفين أحيانًا إلى التعامل معًا فسوف أعقد معكَ هدنةً مثل تلك المعقودة بين سيدتَي القصر، ولديك فرصة كي تجعل هذه الهدنة إما صداقة أو عداوة".

ولأنني لا أحب سماع كلمة حرب وأضطرب عند سماعها سألتها بتوجُس: "لماذا تشتعل الحرب بين السيدتين؟"،

فأجابت دون أن يبدو عليها الانزعاج ذاته الذي يعتريني كلما سمعت الكلمة: "ليست حربًا، وإنما سلامٌ مشروط".

أجبتها متحيرًا: "بمعنى؟".

فأوضحت لي بنبرة العلماء: "كلتا السيدتين لديها الشخصية ذاتها: عنيدتان، ومتسلطتان إلى حدٍّ كبير، وكلتاهما تريدان تنفيذ رغباتهما. مع العلم أن الرغبات في الحالتين هي رغبات مشروعة؛ ماري تريد أن يعيش ابنها الوحيد معها ومع كريس الذي بدأت تظهر عليه علامات الخرف، أما نتالي فترغب في الاستقلال بحياتها عن عائلة زوجها، والتي هي بالمناسبة جزء منها لأنها ابنة عم جورج، هذا بالإضافة الى فكرة جديدة بدأت تلمع في عقلها فيما يخص الهجرة هربًا من غوغائية واضطهاد تشعر بهما نتالي على أرض مصر بما أنها من الأقباط، وفي حين أنني أرى أنها يحق لها البعد عن ماري إلا أنني أرى في فكرة الهجرة غباء؛ لأنها لا تعرف كيف هي الحياة بعيدًا عن الوطن"، هنا تنحنحت لأنني أريد أن أفهم الكثير، لكنني بدأت بالأهم: "هل يُمكن لي سؤالكِ عمّن هم الأقباط؟"، قالت بزهوٍ: "إنهم أصحاب عقيدة يتّبعون فيها المسيح عيسى ابن مريم، ألستَ مسيحيًا؟"، أجبتها بفخرٍ مماثل: "لا، أنا بُوذيّ".

- هل هذه عقيدة أخرى؟

- نعم، على ما أظن، ولكنّ أكثر وضوحًا كنتُ أظن أنها العقيدة الوحيدة.

- تبدو لي قليل المعرفة، أولم تعلم أن هناك ديانات وعقائدَ مختلفة؟

بدأتُ أتعرّقُ من الخجل، وكانت هي تكمل حديثها قبل أن تنقطع جملتها:

- والدة صوفي مثلًا...

في هذه اللحظة دلفَت صوفي إلى الغرفة مذعورة، تبحث عن كوكو في توتر، وعندما وجدتها أخيرًا؛ لانت قسمات وجهها العصبية وحملتها من الأرض، كأمٍّ كادت أن تفقد صغيرَها في وسع السوق وصخبه.

وعندما غابتا عن ناظريّ، أخذتُ أتفحّص الغرفة من حولي، حيث لم يتسنّ لي بالأمس أن أفعل؛ فحينها كان الظلام قد حلّ. رأيت رفوفًا مُعلّقة على الحائط الواقع خلفي في تدرُّجٍ أفقيّ، تراصّ عليها كتابٌ وصليبٌ ذهبي، ومنمنماتٌ خزفية على هيئة أطفالٍ بأجنحة، وتمثالٌ لامرأة جميلة تحمل بين يديها رضيعًا.

ثم عدتُ بتفكيري دون إرادتي مرةً أخرى إلى كوكو، لم يفاجئني اختلاف عقائدنا؛ فقد لاحظت أن أشياء كثيرة مختلفة بيننا، لكن هل يمنع اختلافنا أن تبادلني إحساسي؟ هذا إن كانت لديها نفس قدرتي على الإحساس أصلًا! تعجبتُ من أين أتاني ما أسميه إحساس! هل هو شيء نُخلق به أم نكتسبه مع الوقت؟ أما كوكو، تُرى، هل يستطيع شيءٌ أن يجمعنا؟

أنا مصنوعٌ من خشب أما هي فمن نُحاس! ربما ستتعالى على مادتي. قوية هي مثل تلك المسامير الصلبة التي تستطيع اختراقي، إنها بالفعل قد اخترقت قلبي..

ما فائدة تعلُّقي بها؟ آهٍ من حماقاتي، ومن هذا الليل الذي لن ينجلي!

وتردد في عقلي تعاليمُ المستنير الأعظم:

"الأحمق الذي يعرف حماقته..

هو حكيم، هنا على الأقل

لكنّ الأحمق الذي يرى نفسه حكيمًا..

هو أحمق حقًّا!"(7).

---

(7) الدّامَابَادا "كتاب بوذا المُقدّس" سورة الأحمق.

الفصل الرابع

هذه الليلةَ جافاني النوم، على عكس الليالي السابقة التي كنتُ أنام فيها قريرَ العينِ هانئًا أحلم بلقاء الفاتنة كوكو، لكنّ هذا الشيء المخادع المُسمّى "أمل" قد هجرني اليوم؛ فهى لم تعُد إلى غرفتي طوال عشرة أيام مضت. وليست هي فقط التي لم تَزُر غرفتي، وإنما كل مَنْ في المنزل لم يظهروا قطُّ.

كنت أسمع بين الحين والآخر صوت خطوات في ممرّ الغرف، لكن لم يكن أحد يدلف إلى غرفتي. بعض الخطوات كان يدبُّ على الأرض في وضوحٍ يعلن قدوم صاحبه، والبعض الآخر كان بالكاد يلامس سطح بساطَ الأرضيةِ المخمليّ، كأنه لا يرغب في أن يدرك وجوده أحد.

كان النوع الثاني غالبًا ما أشعر به عندما تكون هناك أصواتُ نقاشٍ صادرةٌ من إحدى الغرف المغلقة. وغالبًا ما يكون الصوت الأكثر ارتفاعًا هو صوت نسائي: إما صوت نتالي، وإما صوت ماري، وأحيانًا كلتاهما، بينما لم يكن صوت صوفي يظهر قَطُّ في أروقة المنزل؛ فهي تتلقى الأوامر فقط وكأنها غير مُقدّر لها سوى تحريك رأسها بحركة تعني السمع والطاعة، تومئ بالاستجابة سواء أكانت تفهم الأمر الذي أُلقِيَ على مسامعها أم لا. غالبًا ما تكون إيماءتها من دون كلمات، إلا في أوقات قليلة تصيح فيها بحماسة: "Ok Madam". وهذا هو الدليل الوحيد أنها فهمت واستوعبت المطلوب منها؛ لأنها في الحالات الأخرى التي لا تكون فيها قادرةً على الفهم،

تُطأطئ رأسها في حركةٍ خفيفةٍ دون أن تنبسَ ببنت شفة؛ وكأنها تحاول أن تنفي فهمها للمطلوب دون أن تثير حنق سيدتها.

أحيانًا عندما تكون نتالي رائقة المزاج، وهذا الأمر قليلًا ما يحدث، تدرك أن عدم سماعها لكلمة: "حسنًا، سيدتي" باللغة الإنجليزية يعني أن صوفي تحتاج إلى مزيدٍ من التوضيح؛ فتعيد عليها الطلب بتغيير بعض الكلمات لتجعل الأمر أكثر وضوحًا، لكن في الأوقات الأخرى والكثيرة التي يكون فيها مزاجها مُكدّرًا، تقرر ألّا تمنحها فرصة الإفلات من صرخاتها، التي ستعقب عدم تنفيذها للأمر، وكأن نتالي تحيك شباكها للإيقاع بفريستها التي لن تتمكن من الدفاع عن نفسها.. فقد أومأت برأسها إيجابًا، وهذا يعني أنها سمعت الأمر، لكن لا يهم إن كانت فَهِمَتْهُ أم لا، وهذا سببٌ كافٍ لإيقاعها في الفخ.

أما رجال هذا المنزل فقد كانوا أقل حدّةً في الحوار، وكان تدخُّل كريس في أي نقاش قادرًا على تحويل مجرى الحديث من الغضب المُستعر إلى الرضى المستتر؛ فكريس يجعل السيدتين تشعران بأن كل واحدة منهما هي الأهم، ليس عنده، ولكن عند جورج تحديدًا؛ فجورج هو موضع النزاع الدائم بين نتالي وماري.

كان اليأس والضَّجر يعتريانني؛ أفتقد كوكو كثيرًا.

أثراها شعرت بلهفتي وحبي لها، وهي باختفائها هذا تعلن رفضها لمشاعري؟ هل بسبب ما يعتنقه كل مِنّا من معتقدات،

قررت أنها لن يصحّ أن تبادلني الحب؟

كانت عشرات الأسئلة تدور في خَلَدي ويحترق معها فؤادي، وقررت أنه إن قُدّر لي رؤية كوكو مرةً ثانية، سأكون لطيفًا معها مثلما يفعل كريس مع نساء المنزل، ولن أطالبها بمبادلتي الحب؛ لن أحمّلها ما لا طاقةَ لها به، ولن أزعجها بأحلامي في أن أعيش عمري معها.

"كما تجمع النحلة الرحيق وتمضي

من دون أن تؤذي الزهرة، لونًا، وأريجًا"(8).

سأجمع منكِ السعادة والراحة والحب يا كوكو.. وعدًا دون أن أؤذيك.

كان الظلام دامسًا، وأنا أنظر لسقف الغرفة أرسم عليه بخيالاتي وجه العزيزة الغائبة.

وبينما كنت أُمنّي نفسي برؤيتها، سمعت صرخةً مُدويّةً اهتزت لها جدران القصر كله. كانت الصرخة هذه المرة تختلف كثيرًا عن صرخات نتالي التي اعتدتُ سماعها منذ حضوري؛ ليس فقط لأن توقيت الصرخة كان قبل شروق الشمس، وقد كانت نتالي معتادة على الصراخ فقط ابتداءً من منتصف النهار وحتى منتصف الليل، ولكن لأن الصرخة هذه المرة لم تكن موجّهة لجورج أو لصوفي، بل كانت موجّهة للرب! وكانت بين الصرخة والأخرى تقضي فاصلًا من الأنين المكتوم الذي يعلو شيئًا فشيئًا، حتى يصل إلى الآهِ الكبرى التي يعقبها في كل مرة مناجاةٌ مليئة بالتوسّل والدموع: يا

عدراااااا.

لم أكن أعرف من هي هذه العذراء التي تناديها نتالي، والتي ظننتها أحد سكان المنزل الذين لم يحالفني الحظ في رؤيتهم. ولم أربط أبدا حينها أنها هي ذاتها مريم أمُّ عيسى الذي يتبع أفراد هذه الأسرة عقيدتَه.

هرولَت صوفي إلى غرفتي، واختطفت من الخزانة البيضاء حقيبةً صغيرةً كانت قد تكدّست فيها متعلقات الصغير المنتظر، ثم ركضت مسرعةً إلى خارج القصر لتضع الحقيبة في السيارة التي كان جورج المذعور قد استقلّها للتّوّ، بصحبة نتالي المتألمة النازفة والجدّين السعيدَين.

قفزت كوكو على استحياءٍ من شعر صوفي على مقربةٍ من باب غرفتي، وكأنها قررت القيام بهذه الخطوة في اللحظة الأخيرة قبل خروج صاحبتها وإغلاق الباب خلفها. لاحظتُ ترددها وتأكدتُ أنها كانت تتوارى عني بكامل إرادتها طوال الفترة الماضية.

كانت بعيدة عني بعض الشيء، وقالت لي بصوتٍ متوتر:

- أنا هنا الآن لأني خائفة، فإن كنتَ ستلومني على غيابي فاعلم أن الشعور بالخوف في هذه اللحظة يكفيني.

كانت المفاجأة أعظم من توقُّعاتي، كوكو عندما شعرت بالخوف قررت أن تكون بجانبي! إنها تشعر بالأمان في جواري، وأنا أشعر بالسعادة في جوارها.

قلتُ دون خجل:

- لن ألومَك، فقط أريدك أن تعرفي أنني انتظرتك كثيرًا.

اقتربت مني بهدوء رغم ارتجافها:

- كنت أعرف، ولهذا السبب لم آتِ.

كانت عيناها تقولان: "لم أكن أرغب في تعلُّقك بأملٍ مهلهل".

اكتفيتُ بإيماءةٍ فَهم تحمل داخلها ضمّة حب، ولهفة شوق. كنت أودُّ أن أقول لها إنه ليس بالضرورة أن يكون الحب وسيلة، وإنما هو هدف في حد ذاته، لكنني اكتفيتُ بما أظهرَته عيني من كلماتٍ بلا صوت، لكنّ لها ألف معنى، وقررت عدم الإفصاح بالمزيد.

انطلق جورج بسيارته وكأنه يحاول الهرب من الخوف الذي يطارده، واختفت السيارة بصوتها العالي في الأفق البعيد بسرعة هائلة؛ لتلحق بالفرحة المعلّقة على أطراف أصابع الرعب الناتج عن مشهد الدماء وصرخات الألم.

بعد أن لفَّ السكون المنزل سألتُها في رقةٍ مبالغٍ فيها بعض الشيء:

- ذكرتِ خوفكِ عندما دخلتِ إلى الغرفة، فهل لكِ أن تخبريني السبب؟

- أوَلَم تسمع صرخات نتالي؟

- سمعتها، أظنها ستلد الصغير قريبًا.

- أجَل، فعندما كانت تناجي مريم، أدركتُ أن المولود على وشك الخروج.

فهمت الآن أن العذراء هي مريم أمُّ عيسى، ولم أسأل كيف تلد العذراء، فأنا أؤمن بالمعجزات.

سألتها: "ولِمَ الخوف؟"، فأجابتني: "ليس خوفًا بقدر ما هو ألم الذكريات".

- لا أفهم؟

أردفت هذه المرة وقد لمعت عيناها بدمعة جامدة: "أصعب ذكرياتي يومَ أختُطف مولود صوفي على يد الداية رحمة فور ميلاده، قبل أن نعرف إن كان ولدًا أم فتاة، كل شيء تغير منذ ذلك اليوم ولم يعُد شيءٌ أبدًا مرة أخرى كما كان".

سألتها مذعورًا: "ولماذا سرقت الدايةُ الملعونةُ المولود؟".

قالت كوكو في حسرة: "لم تكن رحمة هي الملعونة بل أفيورك وموسى ومن قبلهم جوان"، متعجبًا متسائلًا عن هؤلاء الأشخاص الذين لم أسمع عنهم من قبل، فأردفت بمرارةٍ سأحكي لك الحكاية من البداية:

- كانت صوفي طفلة مطيعة، تحاول بقدر استطاعتها أن تُرضي أفراد أسرتها المكوّنة من أمٍّ وأبٍ على غير وفاقٍ، وعمّة لم تكن متزوجة في ذلك الحين اسمها بيكا، وخالٍ غِرٍّ كثير الترحال اسمه موسى، وكنت أنا هدية من موسى الطيب حينها لصوفي الصغيرة المحبوبة من الجميع.

كانت عائلة صوفي من يهود إثيوبيا، غير أن الإرساليّات التبشيريّة التي تواجدت في بلدهم أثناء طفولة الوالدين، جعلت العائلات والقبائل تقرر التحوّل إلى المسيحية من أجل التخلّص من سوء الحال والفقر وأحيانًا الاضطهاد.

عائلةُ أمّ صوفي أصبحت من جماعة السركسيان، أما والدها وعائلته فقد كانوا من جماعة أخرى سُمّيَت باسم "أحباب مريم".

كان السركسيان، أو يهود الفلاشا كما عُرِفوا في المجتمعات الدولية لاحقًا، مسيحيين بالاسم فقط، لكنهم كانوا محافظين على يهوديّتهم في أعماق قلوبهم: يريدون الهجرة إلى إسرائيل منذ نشأتها، ويحلمون بأرضٍ تجمع شَتَاتهم، ويتطلعون إلى الخلاص المنتظر في أرض الميعاد، على عكس جماعة "أحباب مريم" الذين أصبحوا مسيحيين بحق، ومؤمنين بكل تعاليم السيد المسيح.

لم يكن هناك ما يمنع أن يتزوج الأفراد من الجماعات المختلفة المعتنقة للمسيحية آنذاك؛ فتزوج أبو صوفي إبراهام من أمها جوان، وهو الذي كان مسئولًا عن أخته بيكا منذ وفاة والدهما. حافظ إبراهام على أخته، لكنّ هذا الأمر كان يثير حفيظة الزوجة التي لم يكن يُرضِي قلبها شيءٌ، وكانت تتصيّد الفرص لإشعال المشكلات التي لم تكن تكاد تنطفئ حتى تختلق ذرائع أخرى لإشعال المزيد منها.

أما بيكا فكانت امرأة لطيفة معظم الوقت، لكن في أوقاتٍ

قليلةٍ تتحول إلى امرأةٍ لا تُطاق. وعلى الرغم من أن جوان زوجة أخيها كانت تكرهها في كل الأوقات، فإنّ موسى أخي جوان أحبّها في الأوقات التي كانت فيها جيدة، وكرهها جدًا في الأوقات التي كانت فيها فَظّة.

لهذا لم تأمن إلى حبّه لها، ولم تُعطِه كلمة الموافقة على الزواج قَطّ، هذا إذا افترضنا أن جوان كانت ستسمح لزواجهما أن يتمّ من الأساس؛ فقد كانت الأخيرة تقف كشوكةٍ في حلقِ حُبٍّ لم يصل إلى مرحلة النضج قَطّ.

قاطعتْ كوكو لأعيدها من بئرٍ كانت على وشك الغرق فيها: "من الواضح أن الغيرة هي السمة المشتركة بين النساء في جميع البلدان، فقد شعرتُ أنّكِ على وشك سرد حكاية ماري ونتالي"، ابتسمت كوكو: "أنت مُحقٌّ بعض الشيء فقد اكتشفت أن الحياة ما هي إلا وعاء كبير تختلط فيه مصائرنا، وأن ما سأقصّه عليك الآن إنما هو حرف في قصص أخرى كثيرة حدثت من قبل وستحدث كثيرًا لاحقًا".

---

(8) الدّامَابَادَا، سورة الأزهار.

الفصل الخامس

كان السكون يلفُّ القصرَ كلّه، وكأن الوقت توقف ولن تعود دورة الحياة إلا بعودة نتالي.

وقد استغلت صوفي فرصة عدم وجود أحدٍ يُملي عليها أوامره، وقررت البقاء في غرفتها. أغلقت عليها بابها غيرَ آبهةٍ بما قد يحدث خارج الجدران.

وحتى أكون منصفًا، لم يكن هناك أي شيء يُمكن أن يحدث في غياب البشر ووجود عشيرتي من الأشياء فقط، في منزلٍ بوسع منزلنا؛ فنحن وإن كنا نحسُّ ونتألم، لكننا لا نستطيع مهما حاولنا أن نغيّر من ناموس الكون شيئًا؛ فنحن ثابتون، صامتون، جامدون وغير مؤثرين أبدًا في حياة هؤلاء الأشخاص الذين يغيّرون مصائرنا طوال الوقت.

وكان هذا من حسن حظي حتى تبقى كوكو معي أطول وقت ممكن، وقد كانت بالفعل هذه الفترة هي أطول فترة قضيناها معًا منذ لقائنا.

وأكملت لي حكايتها:

كانت بيكا وموسى حبيبين خائفين: أحدهما في الخفاء، والثاني في العلن، وما أدراك كيف يبدو الحبيب الذي يعلن خوفه في نظر حبيبه: غالبًا ما يصوّره في عقله أسدًا يرتجف رعبًا من فأرا

وها هي بيكا كلما تراجعت قوات موسى للدفاع عنها وعن

حبهما، كلما ساءت طباعها، وزادت عصبيتها، فيكون لجوان بدل الفرصة ألف فرصة لتوسيع هوّة أسباب الرفض لهذا الزواج المستحيل.

فيخاف موسى ويهرب بعيدًا في سفرة أخري من سفراته التي يعود منها بعد شهور أكثر اشتياقًا لبيكا، وأكثر ضعفًا في مواجهة رفض أخته للزواج، هكذا دواليك في سلسلة من الحب والرفض والعناد والحزن الذي لا ينتهي.

كانت صوفي الصغيرة متعلقة تعلقًا شديدًا بعمتها وخالها، وكانت هي حلقة الوصل بين حبهما، تحاول التقريب بينهما كلما ابتعدا. براءة الصغار دائمًا ما تشعل فتيل الحب الذي يكاد أن ينطفىء. وكان يكفي أن يشتمّ فيها موسى رائحة بيكا التـي تنام في أحضانها طوال الليل، حتى يجد نفسه مشتاقًا إلى ضمّة لم يتذوقها قطّ من حبيبته، أو أن يُقبّل الصغيرة على خدها، فتتلمس بيكا موضع القبلة، وتلثم الصغيرة باحثةً عن أثر محبوبها على خدها الناعم، وتحلم بقبلة حقيقية من شفاهٍ حرمتها من كلماتٍ تُشعِرُها بالأمان.

وفي إحدى الليالي، سألت صوفي أباها إبراهام إن كان يعارض زواج بيكا وموسى مثلما تعارضه أمها، سألته في استنكار وكأنها تلومه على سلبيته وعدم استخدامه لسلطاته، عن رأيه الذي لم يكن قد أُعلِن قطّ.

وبالطبع لم يكن هذا السؤال إلا بوازع من العمة بيكا، التي لم تفهم أبدًا موقف أخيها من هذا الحب.

قال إبراهام لصوفي الصغيرة بكلماتٍ أكبر بكثير من سِنِّها؛ لأنه كان يعرف أن بيكا تستمع من وراء الباب لردّه، وكنتُ أنا حينها في شعر صوفي لا أبرحه:

- حبيبتي صوفي، أعرف هذه العائلة جيدًا، الحب ليس من أولوياتها، وأعرف الحب كذلك جيدًا، فلا صوت يعلو فوق صوته.

لم تكن صوفي تفهم، ولم تكن مهتمة من الأساس كي تفهم؛ فقد كانت بالكاد قد أتمّت عيدها الخامس منذ أسابيع، لكنّ بيكا فهمتْ، وحاولتْ أن تهضم الإجابة التي حيرتها أكثر مما أراحت عقلها.

موسى لا يستطيع الدفاع عن حبه، لكنّ الحب في قلبها لن يهدأ مهما فعل الحبيب.

فظل الأمر كما هو: حبٌ مربوطٌ بين طرفيّ رغبة ورفض.

وفي ليلة من الليالي كانت جوان تهمس لإبراهام حتى لا يسمعهما أحد، لكنّ صوفي كانت نائمة بينهما واستطعت أنا سماعهما:

- إبراهام، لقد اتخذتُ قراري وسوف أهاجر مع المهاجرين.

- بأي صفة؟

- بصفتي يهودية أمًا عن جدّة.

- وماذا عن الأوراق التي تثبت أنكِ أصبحتِ مسيحية، وأن أمك أيضًا كانت كذلك؟

- فليغفر لنا الربُّ، مثلما سنقاتل مطالبين أن يغفر لنا باقي اليهود، ويعترفوا بحقنا في دخول أرض الميعاد.

- أنا مسيحيٌ يا جوان.

- عارٌ عليك.

- بل عارٌ عليكِ أنتِ؛ تتعاملين مع دينكِ مثلما تقتضي الظروف، وأينما تجدي مصلحتك.

بدأ صوتهما في الارتفاع رويدًا رويدًا.

شتمته جوان بأقذع الألفاظ؛ فلطمها لطمة قوية كسرَتْ على إثرها إحدى ضروسها. استيقظت صوفي وشاهدت فك أمها ينزف، وشعرَتْ جوان بإهانة شديدة لأن إبراهام لم يكن قطُّ من طبعه أن يُظهر غضبته في صورة ضربٍ أو شتائم أو حتى صوتٍ عالٍ. زلزلها تصرُّفه ومنعها من أخذ فرصة للتفكير برَوِيَّة، قررت الرحيل من دونه، ومن دون ابنتها التي تركتها له كعقاب على فِعلته التي تجرَّأ وفعلها.

كان الحقد يملأ قلبها، وحُلم الخلاص يتلألأ أمام عينيها. هناك في أرض الميعاد ستتحقق كل الأحلام، وستكون بجانب هيكل سليمان، ستحميها أمريكا وستمنحها الأموال التي عاشت حياتها تحلم برائحتها، وسيتجمّع شتات أبناء كل أسباط عمومتها.

لملمت أشيائها القليلة التي جمعتها في حقيبة مهلهلة من بقايا سفريات موسى، لا تتعدى حجمها الذراع، ورحلت دون

أن تودع أحدًا ولا حتى ابنتها.

كانت كمن التجأ إلى سفينة نوح ليحتمي من طوفانٍ لا يراه غيره.

ولم تنتظر حتى أخاها لتقنعه بالركوب معها في سفينتها.

بعد أسابيع قليلة عاد موسى إلى قريتهم، وعلم بخبر رحيل جوان. ورغم أن شيئًا في قلبه غبطها على قدرتها على اللحاق بركب المهاجرين إلى إسرائيل، إلا أنه قرر التمسك بالفرصة، واعتبر سفر أخته الذي لن تعود منه، وكأنه طاقة القدر التي فُتِحت له أخيرًا ليحقق حلمه من الزواج من بيكا.

نسيت بيكا مشاعر الخذلان الذي وشمها موسى على قلبها، واعتبرت أنه بطل لأنه لم يغدر معلما غدرَت أخته، وبهذا حمل موسى لواء البطولة فقط لأنه لم يهرب مع الهاربين.

ولم يمر سوى أسبوع حتى تزوجا، وظلّا مع صوفي وإبراهام في المنزل ذاته؛ إذ لم يكن هناك داعٍ للبحث عن بيت آخر لينتقلا إليه؛ فصوفي تحتاج لعمتها بعد أن رحلت الأم، كما أن موسى لن يتوقف عن الترحال بعد الزواج، فهذا هو عمله الذي يكسب منه المال الذي سيعينه على تلبية متطلبات الزواج، وبالتالي صار وجودهم معًا أمرًا مناسبًا لكل الأطراف بصورة مُعلنة، ولموسى - الذي يعشق توفير القروش - بصورة أكثر تكتمًا.

واستمر الوضع على ما هو عليه لعشرة أعوام، ظلت فيهم بيكا امرأةً يتجاذبها قُطبا شخصيتها: الرقة المفرطة،

والعصبية المفرطة. موسى بين قُطبَي الوجود والاختفاء، وإبراهام بين قطبَي السخط والرضى، وأخيرًا صوفي بين قطبَي الخوف والاطمئنان.

الى أن ظهر أفيورك في ظهيرة يوم مشمس، يكاد حصى الأرض من حرارته أن يتحول جمرًا. كان أفيورك شابًا يملك وجهًا أسمر مستطيلًا مثل ملايين الإثيوبيين، عريض الجبهة مثل الآلاف، ذا عينين ضيقتين مثل المئات، لكن تميّزه ابتسامة لا يملكها سواه وحده، ابتسامة بشوش لا تظهر معها أبدًا أسنانه مهما كان يقهقه، ناضجة وغضة في الآن ذاته، ابتسامة أذابت قلب صوفي منذ وقعت عيناها عليه؛ فأسرّت العين والقلب: فلا استطاعت الأولى أن ترى غير أفيورك، ولا استطاع الثاني أن يحب غيره.

يعمل أفيورك سائقَ عربةِ نقلٍ بين القرى الاثيوبية، تعرّف على موسى في إحدى المقاهي على الطرق السريعة التي كان كثيرًا ما يمرُّ عليها الأخير أثناء أسفاره، وكان الشاب الوسيم لطيفًا لدرجة أنه اقتحم قلبه دون عوائق؛ فدعاه إلى العشاء في منزل إبراهام، هذا المنزل الذي تحوّل بفعل العادة إلى منزل موسى ذاته؛ خصوصًا عندما أخذت بيكا على عاتقها حِفل تربية الصغيرة صوفي، والتي ما عادت صغيرة الآن، بل شابة تضاهي أجمل نساء البلدة جمالًا، اختطفت لُبّ أفيورك مثلما خطف قلبها، وسرعان ما قرر الشاب الفوز بصوفي زوجةً قبل أن يأخذها غيره.

وتم الزواج في المنزل ذاته، فلا صوفي تستطيع تَرْك أبيها

وعمتها، ولا تستطيع بيكا البعد عن صوفي.

بعد شهرين، كانت بوادر الحمل قد بدأت في الظهور على صوفي، وكانت بيكا تشعر وكأنها جدّة لهذا الصغير المنتظر، رغم أنها تكبُر أمّه بخمسة عشر عامًا فقط، فإنّ مشاعرها المكتسبة تجاه ابنة أخيها، وحرمانها من مشاعر الأمومة الحقيقية لطفلٍ من صُلبِ موسى، جعلها تختزل كل ما لديها من مشاعر لصوفي فقط؛ وبالتالي كان من الطبيعي أن يكون ابن صوفي هو حفيدها الذي ستحقق معه حُلمًا آخر، لن يتحقق سوى معه وبه: حُلم أن تكون جدّة.

مرّت شهور الحمل بسلام، ولم يكن أحدٌ من أفراد العائلة يعرف أن هناك خُطّةً تُحاكَ لهم في الخفاء.

قبل أن تكمل كوكو الحكاية، دخلت صوفي في ذعر. كانت قد بحثت عنها في جميع أرجاء المنزل والحديقة، ولم يخطر في بالها أنها في الغرفة التي دخلتها اليوم لثوانٍ معدودة. عندما وجدتْها أخيرًا اختطفتها من الأرض مثلما تختطف الحَدَأةُ واحدًا من الصِّيصَان، ولولا أنني أعرف أن البشر لا يأكلون النُّحاس، لكنتُ أقسمتُ أنني رأيت جزءًا من دبوس الشعر وقد قُضِمَ من فرط اللهفة، عندما قرّبتها صوفي من فمها المرتعش.

هذه المرة يمكنني أن أقسم وكُلّي ثقة أنني رأيتُ في عين كوكو دمعةً تترقرق، كانت دمعة مختلفة، تجمع بها ذكريات كثيرة خرجت من الأعماق إلى سطح روحها.

الفصل السادس

مرّت ليلتان منذ أن سمعت صرخات نتالي التي دلّت على ساعة ولادة الصغير، لم أرَ خلالهما كوكو. يخرج جورج ووالداه منذ الصباح الباكر، ولا يعودون إلا في نهاية الليل وقد أعياهم الإرهاق والتعب، ينامون ويستيقظون باكرًا ليعيدوا الكرّة.

افتقدتُ كوكو كثيرًا، وأخذتُ أفكر في القصة التي لم تُكملها لي. وما شغل بالي أيضًا هو محاولة فهم طبيعة هذا الأمر الذي فرّق بين صوفي وأمها. هل الدين يدعو إلى الفُرقة؟ إلى تشتُّت العائلة؟ إلى هجرة الأرض لإرضاء الإله؟ أم أنها طبيعة البشر التي تطبع بصماتها القاسية على تعاليم الآلهة، فتكسو صفاءَها بضغائن بني الإنسان وقسوته؟

وبينما كنت أفكّر في الأمر، دخل جورج حاملًا بين يديه هذا الصبي ذا الملامح الدقيقة والبشرة الوردية، الذي وُضِعَ في قِماطٍ أبيضٍ كفرخِ طائرٍ خرج لتوّه من بيضته ولم يفتح عينيه بعد، كان هناك زَغَبٌ يغطي جسده الأملس.

انتفض قلبي بداخلي، وتسللت إليه رهبة سريعًا ما تسرّبت مع تجشُّؤات الصغير المستمرة. هذا الكائن هو مثال حي لتعاليم الإله؛ فنحن نُولَد على الصورة التي يجب أن نبقى عليها: مُحبّين، مستسلمين، راضين، لكننا مع الأيام نتلوّن بكل ما من شأنه أن يعكّر صفو قلوبنا، وعليه فنحن نظل نقاتل شياطيننا لنعود إلى صورتنا الأولى: يلوثوننا فنحاول التطهُّر،

يزعجوننا فنحاول التخلّص منهم ومن كل شيءٍ تابعٍ لهم، حتى ولو كانت أجزاءً منّا.. إنه الصراع الأبدي.

كان الصغير يتململ ويتلوّى كثيرًا بين ذراعَي أبيه، وكأنه جروٌ يتشمّم شيئًا ما. خلصتْ إلى أنه كان يبحث عن أمه، عن رائحتها، وعن ثديها، لكنّ نتالي كانت قد لفظته مثلما تلفظ الحيتان الماء.

لقد كان بيتر مختلفًا عن صورة الرضيع المطبوعة على قلادة معلقة في جِيدِ العامل الصيني الذي صنعني بيديه الماهرتين، كان اسمه شينج - وبالمناسبة أنا أفتقده كثيرًا - ومختلفًا أيضًا عن هذا الصبي الذي اضطرت إحدى العاملات لجلبه إلى المصنع فور ولادتها له؛ لأن زوجها قد هجرها ولن تستطيع تحمّل نفقات الحياة إذا لم تستمر في العمل.

فلبيتر عينان كاللّوزتين المسحوبتين الى أعلى، وبؤبؤهما فيهما نقاط بيضاء صغيرة مثل شوائب عالقة في ألماس ثمين، بينهما أنفٌ أفطش يتوسّط وجهًا مفلطحًا تسبح ملامح صغيرة في فراغه الشاسع، على جانبيه أذنان تكاد لا تراهما من فرط الصِّغَر، وفمٌ كشِقٍّ واسعٍ في جدار، ينفرج فتشرق معه الدنيا، حين يفصح عن لسانٍ عريضٍ لا يبقى داخل الفم إلا فيما ندر.

كانت صوفي تلحق بسيدها حاملةً حقيبة الصبي، في حين ساعدت ماري زوجها كريس في الصعود إلى غرفته وتغيير ملابسه فور عودتهم من المشفى، أما نتالي فلم تظهر أبدًا وإن

كنتُ تأكدتُ من عودتها عندما سمعتُ اصطفاق باب الغرفة المقابلة لغرفتي بطريقتها المعتادة.

وجّه جورج تعليماته إلى صوفي بضرورة رعايتها للطفل بعض الوقت حتى تستعيد نتالي صحتها، لم تكن كلماته صادقة، فقد أخفت بعضًا من الحقيقة التي سأفهمها لاحقًا.

ظهرت البلاهة المعتادة على وجه صوفي، ولم يكن جورج يعرف إن كانت لا تفهم كلماته أم أنها غير مستعدة لتلقّى هذه المسئولية الكبيرة على عاتقها. وربما شعر بالسؤال المعلق على طرف لسانها ولا تستطيع الإفراج عنه.

كان من الصعب أيضًا على جورج الإفصاح عن الأمر بهذه البساطة، فأخذ في المراوغة.

طبع جورج قبلةً على جَبِين ابنه، الذي كان يشبه مُنَمنمات الملائكة الخَزَفيّة التي رأيتُها من قبل على الأرفف المعلّقة على جدار الغرفة، وناوله برقةٍ لصوفي.

وقبل أن ينطلق جورج خارج غرفة الصغير، أطلقت صوفي سؤالها بطريقة مختلفة عن تلك التي كانت تدور في عقلها: "سيدي، هل يرضع هذا الطفل من قنّينة الرضاعة مثل باقي الأطفال؟".

نظر لها جورج شَزْرًا: "صوفي هذا الطفل اسمه بيتر، وإيّاك أن تتحدثي عنه وكأنه طفل مختلف". انكمشت صوفي في خجل وأومأت برأسها ثم قالت معتذرة: "لم أقصد الإهانة، فقط أردت التأكد من الأمر حتى لا أعرضه للأذى".

فأجابها هذه المرة بعد أن قلّل من حدّة انفعاله: "بيتر مصاب بمتلازمة دَاوِن، وهو طفل طبيعي، وغير مطلوب منك سوى التعامل معه على هذا الأساس".

نظرت صوفي برقّةٍ إلى بيتر الذي لم يكن يشبه باقي الأطفال مثلما ادعى جورج وابتسمت ابتسامة واسعة أظهرت بياض أسنانها، فبيتر لم يكن من لحم ودم، بل هو قطعة من سحابة صيف رقيقة وهادئة.

وبحركةٍ سريعةٍ ومفاجئةٍ لم أحسب لها حسابًا، وضعت صوفي الصغيرَ بداخلي. ارتجفت من هول الموقف، ومن السعادة، ومن فكرة احتضاني أخيرًا لطفل.

لم أكن أتخيّل أن رهبة الموقف ستكون بهذا القدر. لم أستوعب مشاعري في هذه اللحظة ولا أستطيع وصفها، لكن لو كان البشر يستطيعون سماعي، لسمعوا قلبي يدق كطبول رقصة التنّين الصينية. وعلى الرغم من أن رائحة الصغير الخفيفة الهادئة كانت على وشك تهدئة رجفتي، فإنني لاحظتُ أن هذه الرعشة قد ساعدت الصغير على النوم فحافظتُ عليها بوتيرة أقل حِدّة، أهدأ، وبصورةٍ مقصودةٍ هذه المرة.

كانت صوفي لا تزال تحاول قراءة تعليمات إعداد الحليب المكتوبة باللغتي: العربية والإنجليزية، أو أن تستشفّ عدد المكاييل وكمية المياه، من خلال الصور البسيطة المرسومة بطريقة تكاد لا تُفهم.

كانت منهمكة جدًا وكنتُ مأخوذًا بإصرارها، إلى أن لمحت عينَي الزبَرْجد تتلصّصان على المشهد من تحتِ غطاءِ رأسٍ وضعته صوفي على شعرها، كانتا بدورهما تلمعان من الفخر بسيدتها ومن السعادة لرؤية الصغير.

كان الموقف غريبًا على ثلاثتنا: كل واحد ينظر إلى الآخر في فخرٍ وحُبٍّ وأمل والقليل جدًا من التوتر، لكن ظهرت ماري في الوقت المناسب لتضع كل الأمور في نصابها الصحيح.

هذه الجدّة جمعت بين كفّيها خبرة العمر وفرحته، ونثرتهما في أجواء الغرفة، فلا يوجد على وجه الأرض أروع من مشهد جدّة تنظر إلى حفيدها لتستعيد معه ذكريات أمومتها الأولى، وينطلق أمام عينيها قطارُ حياةِ صغيرها الذي أصبح اليوم لديه طفل.

ودخل كريس يتلصّص على بيتر الصغير في سعادة عارمة، كطفل يشاهد فيلمًا متحركًا، يقف بعيدًا حتى لا يزعج هذا النائم بداخلي، يشبُّ على أصابع أقدامه ليراه بصورة أوضح، لكنه فجأةً شعر بدُوارٍ شديدٍ سقط على أثره أمام باب غرفتنا.

هُرع الجميع بمَنْ فيهم صوفي وكوكو لنقله إلى سريره. أما أنا فكنتُ أنتظرُ أي شخص يُطمئنني على هذا العجوز الطيب الذي ارتعبتُ عندما رأيتُه مُتكوّمًا كفأرٍ وقع في مصيدةٍ شلّت حركته.

الفصل السابع

تم اعتبار مولد بيتر حدثًا استثنائيًا رغم ميلاد 5400 طفلٍ كل يوم في مصر، وكان التعامل مع موقف نتالي من صغيرها أيضًا أمرًا شديد الحساسية، فما تمرُّ به ليس اكتئابَ بعد الوضع المعتاد إصابة كثير من النساء به، ولكنه نوع من الرفض بتصديق أن ابنها ليس مثل باقي الأطفال. لا أحد يودُّ انفجارها في نوبات البكاء في كل مرة تحاول فيها أن تحمل الصغير، ولم يستطع أحد منعها أيضًا من حمله. وكانت رؤية نتالي لماري وهي تحمل أو تداعب الصغير أمرًا من شأنه أن يزيد الوضع سوءًا، وبالتبعية أصبح الدور الذي تلعبه صوفي هو الآخر غيرَ اعتياديٍّ؛ حيث كانت على أُهبَة الاستعداد للحفاظ على المسافة المطلوبة لإبقاء ساحة الحرب مُنطفئة وخالية من التوتر بين نتالي وماري، التي كانت أكثر منها تألمًا، ليس بسبب الكروموزوم الإضافي لدى الصغير، ولكن بسبب الذكريات التي بدأت تتسرب من عقل زوجها يومًا بعد يوم. وكان جورج طفلًا جَزِعًا لا يعرف كيف يخرج من دوَّامة الهلع التي أُلقي فيها.

ورغم أن كل هذه الأشياء قد شكَّلت تحولًا جذريًا في حيواتنا جميعًا، فإنَّ الشمس والقمر والعصافير المغرِّدة خارج القصر، وأوراق الأشجار في الحديقة، لم تعتبر هذه التغيُّرات أمرًا يُذكر.

وبالإضافة إلى هذه الأشياء، كان تطوُّر علاقتي أنا وكوكو

أمرًا - رغم غرابته - شديد الوضوح، وشديد العذوبة في الآنِ ذاته؛ فقد غلّفنا حبنا بغلافٍ صداقةٍ لامعٍ وقويٍّ، يسرُّك النظر إليه، ويحفظ بداخله ما هو أروع وأجمل. وتوطّدت العلاقة التي خبّأت تحت عباءتها حُبًا كبيرًا، اتفقنا ضمنيًا على بقائه مستترًا حتى على نفسينا.

ومع تطور الحب وقدرته الهائلة على بَثّ طاقةٍ قصوى في الأجساد، وبما أني وصوفي كنّا شديدَي الانشغال بالطفل الرضيع، الذي يمارس معه كلانا أدوارًا مكتوبة لنا منذ الأزل بدقة، ورغم جهلنا الشديد بمتطلبات تلك الأدوار، واستكشافنا لها رويدًا رويدًا، فقد وجدَت كوكو في هذا الانشغال الذي قيّدنا وألهانا عنها فرصة ذهبية للتسكّع في المنزل كيفما يحلو لها. واستهوتها فكرةُ القفز من رأس صوفي المنشغل بأمور الصغير، في أيّ مكانٍ أرادت وفي أيّ وقتٍ. وقد أتاحت لها هذه المغامرات فرصًا كثيرة لاستكشاف عوالم لم تكن تعرف أنها موجودة من الأساس.

وكانت كوكو للُطفها الشديد أو لحبها الشديد - لا أستطيع أن أحدد - قد قررت نقل ما عرفَته، وما سوف تعرفه من الدنيا إليّ، وبما أني كنت متلهّفًا لقُربها والأُنس بحديثها؛ فقد استمعت بلهفةٍ واهتمامٍ شديدين لكل ما تحكيه، مهما كان عاديًا أو حتى غير مهم.

لكني لن أنكر أنها في كثيرٍ من الأحيان، كانت تحكي لي عن أشياءٍ تحدث خارج جدران غرفتي أغرب من الخيال، أرى من خلالها حقائق البشر.

دخلت ماري بشموخٍ مَهِيبٍ إلى الغرفة، وسبقتها رائحةُ عطرها التي لم تكفِ لمداعبة أنف بيتر، فاستخدمث طرف سبّابتها الرشيقة لتنبيه الطفل النائم، وعندما أظهر استعداده للاستيقاظ بحركة خفيفة، حمَلَته في هدوء واحتضَنَته في حركة مؤثرة، وقبّلت رأسه وهي تتمتم:

- قبل أن أصوّرك في البطن عرفتك.

جاء كريس الذي كان يقتفي أثرها طوال الوقت، وكأنه طفل ضائع من أمه: "هل استيقظ جورج يا حبيبتي؟"، اندهشت ماري لما يقوله كريس، لماذا أخطأ في اسم حفيده وناداه باسم جورج؟

لمست خده الممتلئ ببقَع دَكْناء بدأت تزحف على بشرته، فتلوّنها بلون الضعف وتُبرز تجاعيد بشرته، وحين اقتربت يدها من فمه أمسك بها وقبّلها، فأدركث أن هذه المرأة لا بُدّ أنها قد فعلت الكثير لتستحق مثل هذا الحب من أرَقّ وأطيب اثنين عرفتهما: كوكو وكريس.

ظهر تأثر شديد على وجه ماري، أغلقت على إثره عينيها لتمنع دموعها من النزول، فسأل كريس زوجته التي ظن أن هذا التأثر نتيجة الإجهاد الشديد بسبب رعاية الصغير: "هل تشعرين بألم يا حبيبتي؟ أعرف أن ولادة جورج كانت صعبة، وأنه لا يتركك تنامين أبدًا" أردف وهو يرتعش رعشاتٍ أصبحت جزءًا منه، لا هي رعشات برد ولا خوف: "أخبرتُك ألف مرة أنني أستطيع مساعدتك، إنه ابني مثلما هو ابنك،

أريدك أن تنعمي ببعض الراحة".

أشارت إلى قلبها: "الألم هنا أكبر يا كريس".

وقبل أن يجيبها العجوز دخل جورج إلى الغرفة، فاضطرب كريس وهو ينظر إليه وإلى ماري متسائلًا بنظراته عن هذا الرجل الذي دخل عليهم دون استئذان.

لم تكن المرأة تودُّ إزعاج زوجها الذي بات كثير النسيان، وذاكرته مشوَّشة، غمزت بعينيها له وكأنها لا تودُّ الحديث أمام الغريب الذي اقتحم خلوتهم. ثم طلبت منه في رقَّةٍ مُتناهيةٍ أن يذهب الى غرفته ليستريح بعض الوقت لحين عودتها.

خرج كريس من الغرفة وبعد أن مشى بضع خطوات عاد الى الخلف ليسأل زوجته: "ماري، أيُّ الغرف هي غرفتي؟".

أصابتني قُشَعريرَة ضربت أوصالي وكأنها صاعقةٌ نزلت من السماء فتكّث بقلبي، تعجبت كثيرًا لأن ما يحدث الآن لكريس كان يحدث لي أيضًا، فأنا واثق من كوني كنت شيئًا آخر في الماضي، وأن لديّ حياة سابقة لا أتذكّر إلا شيئًا قليلًا منها.

جميل أن يكون لك فرصة لتبدأ من جديد، لكن الذكريات تجعل للأمر قيمة.

أظن لهذا السبب يظهر الحزن في عين ماري، فذكرياتها وذكريات كريس مربوطتان بخيط واحد، وضياع أحدهما يعني حتمًا ضياع الآخر.

هذا بالإضافة إلى أنك حين تعلم بوجودِ خطرٍ يحوم فوق

الرؤوس، وأنك لا تراه ولا تستطيع محاربته بنفسك أو الدفاع عن أحبابك من التعرض لأهواله، يصبح الأمر حينها في غاية الصعوبة. وهذا تمامًا ما كانت تمرُّ به ماري.

تأبّطت ماري ذراع زوجها لتأخذه إلى غرفته بعد أن تركت بيتر الباسم دائمًا في داخلي، لكنه بدأ في البكاء بعد دقائق، فهرولت صوفي إلى الغرفة لتجيب نداءه، وجاءت في أعقابها ماري، ومن ورائهما نتالي التي لم تكن تظهر في هذه الغرفة سوى نادرًا.

كان هناك صراع على وشك الاشتعال يظهر في الأعين السِّتّ، كما لو أن الغيرة تنهش القلوب، وكل امرأة ترى أنها تستحق الآن أن تحمل الطفل.

كنت أستطيع استيعاب مشاعر ماري ونتالي، لكن راودني تفكير غريب فيما يخص صوفي، التي كانت تتسلل كثيرًا إلى غرفتنا في الأيام السابقة عندما يكون الجميع في شباتٍ عظيم.

ثُرى ما الذي تضمره في نفسها تلك المرأة غريبة الأطوار؟

الفصل الثامن

"لن تصدق ما سمعتُه اليوم يا مهدي". استهلّت كوكو اليوم حديثها بهذه الجملة، التي ما إن تذكّرها حتى أصبح متيقنًا من سماع حكاية من تلك الحكايات المشوّقة. وبلهفةِ خِنّوصٍ وجد بركة من الوحل في يومٍ حار، أردفت كوكو تحكي قبل أن أستفهم منها عن الأمر:

- في البداية أنت تعرف كَمْ أحبُّ وأقدّر ماري، وتعجبني كثيرًا أناقتها وبراعتها في اختيار ملابسها وحُلّيها.

أجبتها:

- أعرف كل هذا، لكن لماذا هذه الديباجة؟

- كنتُ في غرفتها اليوم حيث أختبئ في انتظار سماع مكالمتها لأختها، وليسامحني الربُّ على ذنبي الذي لا أستطيع التخلص منه في التنصُّت على بني البشر، والاستماع إلى حكاياتهم المسلية وانفعالاتهم التي ليس لها مثيل.

ضحكت كوكو وهي تقلد ماري عندما تتحدث لأختها، وكأنها ممثلة على مسرح:

- حاولتُ قدر ما حاولت لكنني لم أستطع أن أحبّ هذه الفتاة أبدًا، تعرف طبعًا أنها تقصد نتالي؟

ثم حاولت أن تتصنّع الجدية التي كانت تغلّف كلمات ماري معظم الوقت، لكنّ الضحكة فلتت منها ولم تقدر على كتمها، وضحكتُ أنا الآخر حتى كادت أضلعي تتفسخ من شدة

الاهتزاز.

أعرف أن كوكو تحب الإطراء، وكنّا قد أزلنا الألقاب منذ زمنٍ، فقلت:

- أنتِ موهوبة يا كوكو.. إن أُتيحت لكِ فرصة للتمثيل ستصبحين نجمةً بلا شك.

احمرّت وجنتاها، وأجابتني: "وأنت صديق رائع يا مهدي. هل تعرف ما الذي يميّز الأصدقاء الحقيقيين؟ أنهم يعرفون تمامًا ما نودّ سماعه، وما الوقت الذي نحتاج فيه هذه الكلمات تحديدًا، سواء أكانت مديحًا أم عتابًا أم تشجيعًا، أو حتى كلمةَ شكرٍ بلا مناسبة ولا سبب، وأنت تفعل كل هذا يا صديقي العزيز.

- وصديقكِ سيصدّقكِ القول الآن، ويخبركِ أننا انحرفنا عن الحديث الأساسي، وأنكِ لم تتخلصي بعد من عيبكِ الشديد في بتر الحكايات.

كانت كوكو تضحك بكل أريحيّة؛ فهي لم تعُد تتجمّل أمامي، بل تتعامل بطبيعتها بعد أن أزالت التكلّف الشديد الذي كانت تتعامل به في البدايات. أردفتْ:

- بالمناسبة، حتى الآن لم تُكملي لي حكاية صوفي.

- هل ستصدّقني عندما أخبرك أنني تذكّرت كل تفاصيل قصة صوفي وأنا أستمع لمكالمة ماري مع أختها عندما كانت تشكو لها تصرفات نتالي وعدم شكر الرب على نعمته التي

منحها لهم، أنا أيضًا أرى أن نتالي غبية، وإن سنحت الفرصة لصوفي لأخبرتها أنها أغبى نساء الأرض جميعهن.

- ولماذا يرى الجميع هذا؟ ولماذا وكيف صوفي تحديدًا؟

- لأن صوفي حُرمت من هبةٍ ميّز الربُّ بها نتالي. ربما حان الوقت لأكمل قصة صوفي.

وكأنها شحبت بسحر مغناطيسي الى الماضي: "أين وقفنا؟ أه تذكرت، سأحكي لك ما هو مزيج من ما عايشته بنفسي وما قصّه عليّ صديق قديم؛ مما يعني عدم تأكُّدي من تفاصيل الحكاية وإن كنت أثق في هذا الصديق مثلما أثق بك".

سألتها وقد دبّت الغيرة في أوصالي، وكانت المرة الأولى التي أشعر فيها بمثل هذا الشعور: "هل يمكنني أن أعرف من هو هذا الصديق؟"، أجابتني وقد ظهر في عينيها ألَقٌ حزين: "قلادة مفاتيح موسى التي لم تفارقه قط، كان اسمه مفتاح السر".

لم أُجِبها، فقد كنت على وشك الاشتعال فأكملت هي: "في إحدى الليالي بعد أن ابتعدت جوان، وتزوج كُلٌّ من موسى وبيكا أخيرًا وجمعتهما غرفة واحدة، عاد موسى إلى المنزل وهو يحمل هاتفًا جوّالًا، في وقتٍ لم يكن أيٌّ من أبناء بلدتنا يعرف ما هو هذا الاختراع أساسًا. تعجبث بيكا وسألت موسى عن هذا الشيء العجيب، ومن أين أتى به؟ أجابها بفخر أنه مقابل حصته في عملية تجارية قام بنقلها بين بلدتين كلتاهما ليست بلدتهم. كان يؤكد هذه المعلومة وكأنه

ينفي عن نفسه تهمةٍ ما!

تعرف بيكا موسى جيدًا منذ الصِّغَر، تقرؤه وكأنه كتاب مفتوح أمامها، ورغم أنها لم تلد ابنًا فإنّ موسى كان في الواقع ابنها الذي تستطيع الشعور به دون أن ينبس ببنت شفة، وكانت بيكا تثق بأن وراء هذا الاختراع العجيب كارثةً يحاول موسى إخفاءَها، لكنه استطاع أن يغيّر مسار الحديث هذه الليلة بأن أخبرها أن أفيورك يوذ الزواج من صوفي.

تمرُّ الأيام كالبرق عندما يكسوها الفرح، فلا يبقى عندك فائض من الوقت للبحث عن ما قد يعكر صفو سعادتك، وهذا ما فعلته بيكا عندما تجاهلت أمر الهاتف، وتجاهلت عن عمدٍ ما قد نتج عن وجوده من اتصالات كثيرة يرد عليها موسى بكلمات مقتضبة، لا تشفي فضول بيكا الذي قررت وَأْدَه حتى لا تضطر إلى معرفة ما قد يبعدها عن موسى أو يبعد هو عنها.

كان شك بيكا حينها يكمن في احتمالية معرفته لنساء أخريات، ولم تكن تفضل طرح احتمالية كون أولئك النساء امرأة واحدة بعينها؛ ففي الخيانة على عكس كل أمور الدنيا كلما زاد عدد منافسيك كنت في أمان.

تزوج أفيورك من صوفي بعد شهور قليلة، كانت الاستعدادات فيها في منزلهم تقوم على قدمٍ وساق، فإبراهام ليس له سوى صوفي ليعطيها كل ما يستطيع من عطايا. أحضر أفيورك إلى منزل عروسه البقرة الواجب على كل عريس إحضارها لعروسه، لكنه تخلى عن ضرورة قضاء شهر

العسل في منزل والديه كما هو العرف في بلدهم؛ فقد كان منزل والديه ممتلئًا بالأبناء وأزواجهم وعشرات الأحفاد، وقد اعترف أفيورك لصوفي أن الضوضاء التي كانت تلفُّ أرجاء منزلهم لها عظيم الأثر في قراره في العمل بين القرى؛ حتى لا يضطر للاستقرار في منزل والديه الذي يملؤه الخير وتنقصُه الخصوصيّة.

فرحت صوفي بأن خطيبها قد وجد راحته أخيرًا في عائلتهم قليلة الأفراد نسبيًا؛ خصوصًا أنه لم يسأل عن والدتها وافترض تسليمًا بأنها بكل تأكيد قد ماتت منذ زمن، هذا ما استنتجه من قول العمّة بيكا المتكرر بأنها هي من ربّت صوفي منذ كانت صغيرة.

ولم يُطرح المزيد من الأسئلة حول هذا الأمر قطُّ، حتى إن أفيورك لم يعلم أن موسى خال زوجته؛ لأنها - ولحُسن حظِّها - كانت تناديه منذ صِغَرها بموسى دون ألقاب؛ مما أعفاها من ضرورة سرد حكاية أمها التي هاجرت إلى أرض الميعاد، وانقطعت أخبارها منذ زمن، أو هذا ما كان يظنه الجميع.

فقد أخبرني "مفتاح السر" أن ما حدث في الواقع أن جوان كانت لا زالت تملك القليل من مشاعر الأمومة، مشتعلة تحت خلطة من رماد الحلم البعيد والسخط الشديد؛ خصوصًا عندما علمت بزواج أخيها موسى من بيكا، والذي كانت تعارضه وتقف عائقًا دون تنفيذه بكل ما أوتيَت من قوةٍ طوال سنوات عمرها.

استمرت جوان في تقصّي تفاصيل حياة ابنتها وزوجها الذي لم يطلقها، ولكنها عَدّت نفسها غير متزوجة منه عندما أتمّت أوراق لجوئها إلى إسرائيل، وتم تغيير اسمها من جوان إلى راشيل.

كان موسى هو قناة المعلومات بالنسبة لها، لكنها سرعان ما سئمت الأخبار المكررة عن صوفي، وقررت توفير قيمة اتصالاتها التي كانت تتطلب ترتيباتٍ كثيرة بينها وبين موسى، واكتفت بالاتصال بموسى مرة واحدة كل عدة شهور، ثم كل عام، إلى أن اختفت جوان بضعَ سنوات لتعود بعدها باحثةً عن أخيها من خلال بعض المراسلات، تطلب منه ضرورة الاتصال بها على هاتف منزلها عندما يُتاح له فرصة الوجود في مكانٍ آمنٍ وخالٍ من الضجيج والآذان المُتنصّتة، على أن يكون هذا الأمر في غضون يومين على الأكثر.

لم يكن هناك أي شخص في المنزل أو في القرية بأكملها يعلم أن موسى على اتصال بأخته، فقام بعملية تمويه سريعة توجّه على أثرها إلى قرية مجاورة، عرّف نفسه فيها على أنه غريب، وتوجه إلى أحد مكاتب الاتصال بعد مواعيد عملها الرسمية، وتوسل إلى العامل أن يمنحه قليلًا من الوقت للقيام باتصال، على أن ينتظره على المقهى المجاور للمكتب ويطلب طعامًا لكليهما لأنه ينوي أن يدعوه على العشاء؛ تقديرًا لمساعدته له في القيام بهذا الاتصال الهام لمَقرّ عمله في المدينة البعيدة.

سعد كثيرًا موظف الاتصالات بهذا العرض؛ لأنه كان يتضوّر

جوعًا بعد يوم عمل شاق، فساقَهُ الجوع إلى المقهى يحلم بكل ما لذّ وطاب، واختار الطاولة المطلّة على باب مكتب الاتصالات حتى لا يزوغ منه هذا الضيف الذي ربما يكون في نيّتهِ الهرب دون دفع ثمن المكالمة والطعام. جلس الموظف مَزْهوًّا بفطنته وذكائه ورجاحة عقله، بينما كان موسى في الداخل يُجري الاتصال الذي لا يعرف ما ينتظره من خلاله.

عندما سمعت جوان صوت أخيها سألته قبل السلام إن كان أحد يسمعه؟ فأجابها في ثقة أنه وحده في المكان بأكمله.

سألته مرةً أخرى إن كان لا يزال يحب المال؟ فأجابها بثقةٍ تفوق ثقةَ إجابته الأولى أنه أصبح يحبها أضعاف ما كان.

سألته إن كان يملك سيارة الآن؟ فأجابها بأنها سيارة نقل ثقيل فتهللت أساريرها، فما كان منه إلّا أن بدأ هو في طرح الأسئلة: ماذا تريدين يا جوان؟ قالت: إن كل ما تحتاج إليه هو القليل من الأطفال التي تعجُّ بهم شوارع قُرَاهم.

لم يفهم موسى في البداية أو ربما تظاهر بعدم الفهم حتى لا يصدق ما كان واضحًا، لكنه سرعان ما تفتّحت شبابيك عقله عندما علم السعر الذي سيُدفَع في كل رأس، هكذا قالت جوان: 100 دولار للرأس الواحد!

سألها في ذهول: 100 دولار أمريكي؟ فأجابته إن كان يعرف دولارات من أي جنسية أخرى؟

ضحك بسخرية على غبائه، فهو حقًّا لا يعلم دولارات أخرى غير تلك الأمريكية الصنع. تتابعت الأسئلة، السؤال تلو

الآخر، ومع كل سؤال يخفق قلبه بشدة أكبر، لا يعرف إن كان خوفًا، أم لأنه متحمس لخوض هذه المغامرة التي ستفتح له طاقة القدر. وكان سؤاله الأخير متى يجب عليه البدء؟ وتم الاتفاق وبدأت الأموال تنهال على موسى مع أول طفل تم اختطافه وتسليمه عبر حدود البلاد، يذهب الصغير إلى مصير لا يعلمه إلا الله والمُتسلِّمون في نهاية المطاف؛ فموسى لم يكن يكلف نفسه عناء معرفة ما سوف يحدث لهؤلاء الصغار بعد تسليمهم، في الحقيقة لم يكن أحد ليسمح له بمعرفة أي معلومة أكثر من مكان التسليم وكلمة السر.

وما سهّل مهمة موسى إلى أقصى حد، أن المشتري لم يكن لديه أية مواصفات خاصة أو محددة للبضائع التي تم توحيد سعرها بالـ 100 دولار للرأس، سواء أكان هذا الرأس لولد أم بنت، رضيع أم طفل على أعتاب البلوغ، طويل أم قصير، لديه عيون ملونة أم أعمى، بصحة جيدة أم ضرب المرض كل جسده.

لم يكن لدى موسى أي شعور بالذنب؛ لأنه تصور سيناريو واحدًا لما يحدث في البلاد الفقيرة: وهو أن الأم والأب لديهما عشرات الأطفال لا يستطيعون إطعامهم، وبالتالي اختفاء واحد منهم لن يضيرهما، بل على العكس قد يكون في مصلحة الأسرة والصغير الذي ربما، وفقط ربما، قد يكون الهدف من شرائه هو إعطاؤه لزوجين لا يستطيعان الإنجاب مثله هو وبيكا، ولولا خوفه من انكشاف أمره لكان قد عاد في إحدى الليالي برضيعٍ هدية لزوجته الحبيبة التي لم تبكِ قَطُّ

على نصيبها.

لكنه آثر السلامة بعدم المجازفة؛ خصوصًا مع تطوُّر الأمر وزواج صوفي من أفيورك الفَتيّ، وحَفلها في طفلٍ منه بعد شهرين من الزواج.

كان هناك أمرٌ آخر غير المال قد أثلج قلب موسى كلما شعر بالخوف، وهو تأكُّده من أن أفيورك هو الآخر يعمل في شيءٍ ما غير قانونيّ يدرُّ عليه أموالًا طائلة؛ مما أشعر موسى أنه ليس الآثم الوحيد في هذه العائلة الطيبة.

اطمأن موسى لاستتار أمره، فكلما مرّت عليه العمليات اتخذ طُرقًا أكثر احترافيةً في إخفاء أثره، لكنّ السر انكشف من قِبَل الشخص الوحيد القادر على الانتقام. عرفت الداية رحمة التي كانت تطوف البلاد لتهب الحياة، أن هناك سارقًا للأطفال يجول الأرض طولًا وعرضًا ليشقَّ قلوب الآباء بسرقةِ فِلْذات أكبادهم، ولسوء حظ موسى أنها قد عرفت مَنْ هو هذا السارق، باقتفاء أثره من خلال بعض المعلومات القليلة التي سمعتها من أهالي القرى، إذ كانت الوحيدة التي تدخل وتخرج منها وكأنها فرد من أفراد قبائلها؛ فقد كانت الداية رحمة التي أتمّت عامها الثمانين، تعرف الكثير والكثير بسبب ذكائها الذي جعلها ترث عملها عن جدتها وهي في سِنٍّ صغيرة، ثم بعد ذلك ما أورثه لها الزمن من معارف لا حصر لها.

وقررت رحمة الانتقام من العائلة بأسرها؛ ظنًّا منها أنهم

جميعًا يعلمون ما هو عمل موسى، وعمل المُهرّب الثاني أفيورك الذي يعمل في بيع المُخدّرات وتهريبها.

وعندما وُلدت صوفي على يد رحمة، أخذت الأخيرة المولود في غفلة من أهل الدار واختفت، ولم يجد أحد لها أثرًا في البلدة كلها، لكنها كانت قد تركت بعض الأوراق الملقاة في الطرقات كُتِبَ عليها أن سارق الأطفال هو موسى الذي اختفى هو الآخر بدوره من البلدة، وحاول أفيورك اللحاق به ربما يستطيع معه أن يصلا إلى عصابة خطف الأطفال علّهم يجدون الطفل أو الطفلة.

وتجمّع أهل القرى أمام منزل إبراهام يطالبون بالقِصَاص. كان مشهدًا مَهِيبًا لأناسٍ مكلومين بالمئات أمام الدار، وامرأتين تندبان وتنزفان ألمًا وذعرًا داخل المنزل.

كانت بيكا تحتضن صوفي بقوة، وكأنها تحاول أن تستجمع من قوة احتضانها شجاعتها للقيام بما قررت القيام به بعد صدمتها في زوجها.

وقفت فجأة، ودون تردد اتجهت إلى المطبخ، أمسكت بزجاجة بلاستيكية بها كيروسين، خرجت إلى الحشد، أقسمت بالربّ أنها لم تكن تعلم أن زوجها سارقٌ وأنه سرق أطفالهم، لطمت خدودها وقالت إنه اختطف عمرها كله، ألقت عليه اللعنات، تضرّعت أن ينتقم الله منه، صبّت الكيروسين على نفسها وأشعلت النيران التي استمرّت طويلًا دون أن يحاول أحد الاقتراب منها، أو إنقاذ المرأة التي كانت تصرخ

وتتمرّغ في الأرض ثم تحولت إلى جثةٍ هامدةٍ بعد دقائق.

أما صوفي فقد انتظرث عودة صغيرها لأيامٍ، وأسابيعٍ، وشهورٍ، حتى مرّت السنة، لكنه لم يعُد لا هو ولا موسى ولا أفيورك.

حملت صوفي أقل القليل في حقيبة صغيرة، ورحلت بحثًا عن النسيان، وعن عمل يُعينها على الحياة بعد أن نبذها ونبذ أباها كُلُّ من كان في البلدة، وفي النهاية مات أبوها كمدًا وحزنًا.

ومن يومها وصوفي تحافظ عليّ في رأسها، ذكرى وحيدة باقية من أيام كانت سعيدة".

كنت على وشك أن أنطق ببضع كلمات، لكن العَبَرات خنقتني وألجمتني، لأدرك معها أنني أملك أيضًا ما يُسمّى: حزن، وغضب، وتعاطف. كنت أكتشف نفسي وأنا أستمع لحكايات غريبة لم أتوقع أن تصدر عن أعظم مخلوقات الأرض، عمّن يُطلق عليهم بشرًا.

الفصل التاسع

كانت الأيام تمرُّ بجمود الأفعال المتكررة، تسير لأنها لا بد أن تسير؛ فالحياة لا تتوقف مهما حدث في الدنيا، وناموس الكون لا يخضع لأيٍّ ما كان، بل نخضع له جميعًا مهما حاولنا التمرُّد أو كسر قواعده.

ولم تسلَم نتالي من قانون الطبيعة، فقلوب الأمهات أرقُّ من أن لا تهوي إلى صغارها مهما كان الحزن أو الغضب أو الإحباط.

كانت نتالي في الأيام الماضية تتسلل لتلقي نظراتها على بيتر وكأنها لا ترغب أن يراها أحد قريبةً من منه، لكنها اليوم ظهرت بصورة مختلفة، معلنةً أنها هنا من أجله. تركت الباب مفتوحًا على مصراعيه، ضمت بيتر إلى حضنها وجلست على مقعد كانت أعدّته قبل ميلاده ليكون عرشًا لملكة تحتضن وليّ العهد.

ارتجفت قليلًا في البداية لكنها سرعان ما شعرت بأن هذا الرضيع يبثُّ فيها الروح مثلما بثّت هي فيه الحياة.

لحقَت بها ماري التي أغلقت الباب خلفها، وسحبت مقعدًا صغيرًا من جانب الحائط، واقتربت من المقعد الوثير الذي يجلس عليه أيًّا ما كان الشخص الذي يُرضع بيتر، والذي كان هذه المرة هو نتالي.

كان تصرف ماري غريبًا على نتالي، فأوجست خيفةً ولم

تبادرها بالحديث، فباغتتها ماري بقولها:

- هل تحبين صغيرك؟

في استنكارٍ أجابت نتالي وكأن ما قالته ماري الآن إنما هو ضربٌ من الجنون:

- هل تكره أيُّ أمٌّ ابنها؟

- لا أعرف، فقد ماتت أمي عندما كنتُ صغيرة جدًّا، ولم تسنح لي الفرصة لاختبار مشاعرها تجاهي.

- كانت ستحبك بكل تأكيد.

- هل تظنين أني أستحق الحب؟

لم تُجِب نتالي، لكنها كانت تُضمر داخلها إجابةً مغزاها أنها لا تحبها.

أكملت ماري:

- ستقولين في نفسك إنني ربما لا أستحق، فأنتِ لا تشعرين تجاهي بهذا الشعور، وتتوقين لمواجهتي بأني أُمٌّ ظالمة أسرفَتْ في حب وتدليل جورج، وأني أخرب علاقتكما بسبب هذا التدليل. بالمناسبة أنا أيضًا أشعر بأنك أخذتِ جزءًا من ثروتي، بالأحرى أعظم وأكثر جزء قيمة.

كانت ماري تضحك من قلبها وكأنها مُتقبِّلة مثل هذه الاتهامات إذا ما قالتها كَنَّتُها، فابتسمتْ نتالي دون إفصاحٍ بالموافقة أو الرفض، وأردفت ماري:

- ضُمّي ابنكِ لصدرك.

فعلت نتالي.

- انظري إلى وجهه جيدًا.

نظرت إليه وأشرق وجهها من السعادة وكأنها تراه للمرّة الأولى.

أكملت ماري:

- أغمضي عينيكِ وتخيليه ينمو حتى يصبح رجلًا يُشبه أباه، وأبقي عينيكِ مغمضتين على هذه الصورة.

- لا أستطيع أن أمحو صورته الحقيقية الآن، أراه رجلًا كبيرًا بوجه طفل.

- حاولي.

- لا أستطيع.

- بجهدٍ أكبر.

- الآن أراه.

- عظيم، اسمحي لي بأخذِه من بين يديكِ.

حملته ماري في رِقّةٍ بالغة، وأردفت:

- صِفِي لي مشاعركِ الآن.

أجابتها نتالي في وَجَل، وقد تقلّصت ملامح وجهها مُغمض العينين:

- فراغ، أشعر بفراغٍ شديدٍ في صدري.

- تخيّلي أن هذه مشاعركِ لأنني سحبتُ منكِ طفلًا لم تسهري عليه ليالي.. هل تفهمين الآن مشاعري؟ هل تدركين لماذا أرتعب كلما شعرتُ أنك تريدين أخذ جزء مني؟ ابني الذي أصبح رجلًا لكنه في عيني سيبقى مثل الأطفال. انتفضت نتالي واحتضنَتْ ماري بقوة وهي تبكي وقبّلت رأسها؛ تعتذر دون كلماتٍ عن عدم فهمها لها ولمشاعرها طوال الفترة الماضية.

- لكنني يا ماري أودُّ السفر بعيدًا ببيتر، لا أظن أنني أستطيع مواجهة العالم هنا به، هذه الأرض لا تتقبّل الاختلاف، لا تتقبل الضعف، ولا تتقبل المرض.

- ما الذي يدور في بالك؟

- أود الهجرة ببيتر إلى أرض تعرف كيف تتعامل معه، أكون فيها أنا وهو سعداء.

- هل سيهون عليك عمّك كريس؟

- لن يهون، لكن ابني أيضًا لا يهون.

- كريس يتلاشى أمام عيني يا نتالي وأنت تودين أن تتركوني وحدي؟

وقبل أن تكمل السيدتين الحوار الدائر بينهما، كانت صوفي تصرخ بأن سيدها كريس قد سقط أرضًا. كان في الواقع قد مات.

الفصل العاشر

بعد موت كريس ببضعة أشهر، أصبح بيتر الذي بات ينمو بسرعة، يضرب الهواء بقبضته الناعمة وأقدامه الضعيفة وكأنه يسبح في ماءِ بركةٍ لا يراها سواه، يطفو على ظهره ينظر إلى سماء غرفتنا، يُناغي كائناتٍ لا أراها ولا يراها شخص غيره.

رأيته مرة أو مرتين يبتسم، وسمعت مرة صوتًا يكاد يكون مقدمة لضحكة تستعد للانطلاق في يومٍ من الأيام القريبة.

أصبح الآن يعلّق عينيه على بعض الأشياء التي تداعبه بها ماري، التي تحرص على اللعب معه رغم حزنها الشديد، وأصبح يبكي عندما يراها تنسحب من غرفته.

كما عادت فكرة الهجرة تراود نتالي بصورةٍ أكثر ضراوة، بعدما خلّف كريس الحبيب وراءه فراغًا كبيرًا في كل القلوب والصدور، لكنها كانت مُصرّة هذه المرة على أخذ ماري معهما؛ فلا هي تستطيع الاستغناء عنها، ولا ماري تستطيع العيش دونهم.

تم جمع كل ما سيحتاجون إليه من أغراضٍ، والتي كانت كثيرة، وقرروا الاستغناء عن كل ما يستطيعون شراءه من البلد الجديد.

قاموا بالتبرع بكل ما من شأنه أن يفيد الغير، وكنت أنا من ضمن هذه الأغراض التي استطاعوا الاستغناء عنها لصالح

عائلة أخرى أكثر احتياجًا ربما من غيرها.

وجاءت لحظة الوداع، لحظة مخيفة كوحش شفاف لا تراه لكنك تشعر بأظفاره مغروزةً فيك. ولم يكن وداع كوكو هو الوداع الوحيد المؤلم بالنسبة لي، ولكن أيضًا وداع بيتر، وصوفي، وماري، ونتالي، وحتى الطفل الكبير جورج.

تم حملي على الأعناق، ونزل بي الحمّالون على السلالم الطويلة، لأرى بهو القصر وقد تغيّر كثيرًا عمّا رأيته في المرة السابقة: نُزِعَت الإطارات عن الحوائط، وتم لفّ السجّاد الإيراني كله في شكل أسطواني، تجمعت قطع الأثاث القليلة الباقية في كومة واحدة، وبقيَ فقط البيانو الكبير الذي لم أسمعه قطّ يُصدر ألحانًا، لا راقصة ولا جنائزية، لكنه بالطبع كان شاهدًا مثلي على أحداث مختلفة؛ منها الحزين ومنها بالطبع السعيد.

الحكاية الثانية

الفصل الأول

عملية نقلي كانت متعبةً لدرجة أعيتني؛ فالمسافة بين منزل جورج ومنزل عبد الحميد قرابة ساعة من الزمن، قطعتها السيارة صعودًا وهبوطًا بين الحفر والخنادق والمطبّات الموجودة في الشوارع الواسعة السريعة، والحواري الضيقة التي كان تمشي فيها العربة التي تحملني، وكأنها جمل يسير في الصحراء بين الجبال الوعرة. وقد كنت أشبه سنام الجمل حين وُضِعت على ظهر صندوق العربة "الربع نقل" كما أطلق عليها سائقها، والذي كان يقايض عبد الحميد على ثمن النقلة بعد أن وصلت إلى منزله، لأبدأ فيه فصلًا جديدًا من فصول حياتي.

طلب عبد الحميد من السائق، الذي تغيّرت نبرة صوته عندما رأي أن الخمسين جنيهًا التي طلبها من عبد الحميد هي آخر ما في محفظة أمواله المهترئة، في أدبٍ إن كان يمكنه أن يساعده في حملي إلى الطابق الثاني حيث يسكن. كان عبد الحميد دمثًا جدًا لدرجة لم يستطع معها السائق الصلف إلّا أن يكون متعاونًا، وحملني أمام عبد الحميد الذي أخذ يغمره بسيلٍ من الدعوات وكلمات الثناء، جعلت الآخر يشعر بجميل معروفه والذي من الواضح أنه لم يكن معتادًا على فِعله. وأخذت ابتسامته وقسمات وجهه تبتهج كلما أضاف عبد الحميد جملة من أمثال: لاربنا يكرمك - ربنا يراضيك - ربنا

يوسّع رزقك"، ولم أكن أعرف حتى هذه اللحظة إن كان الرّبّ الذي يدعوه عبد الحميد هو ربي، أم رب كوكو، أم رب جوان! وربما يكون غيرهم جميعًا! لكني على كل حال من الأحوال أحببت كم أن عبد الحميد يدرك أن الكرم والرضى والرزق تأتي جميعًا من عند الإله.

كانت السلالم متهالكة وضيقة جدًا؛ مما جعل الرجلين أكثر حرصًا حتى لا تُزلّ أقدامهما من ناحية، أو تُجرّح أخشابي من ناحية أخرى. أخذ الأمر بعض الوقت حتى وصلنا إلى المنزل الجديد، في الواقع كلمة "جديد" هي كلمة في غاية الإجحاف؛ فهذا المنزل عتيق جدًا، وإن كان بالتأكيد يُمكن اعتباره جديدًا بالنسبة إليّ.

يبدو الأمر غريبًا بعض الشيء، لكني سأعترف أن الأفكار في رأسي أخذت تدور وتتكون لتعطي لي إجاباتٍ فلسفيّة، كانت من الجودة أن أصابتني بنشوةٍ شاعريّة؛ فقد فكّرتُ في أن كل ما هو جديد بالنسبة إليّ قد يُعدُّ غايةً في القِدَم بالنسبة إلى شخص آخر، والعكس صحيح بالتبعية، وأنا أكبر مثال على هذا؛ فبينما كنت منذ لحظات مهد بيتر القديم، ها أنا الآن أصبحت مهدًا جديدًا لشخصٍ جديد. أعجبتني الفكرة، وأخذت أطبّقها على كل شيء وقعت عليه عيني وأنا أتأمل المنزل المختلف كليةً عن منزل جورج: حيث ضيق المساحات التي جعلت الأثاث غير واضح المعالم من فرط التصاقه ببعضه البعض؛ وكذلك الأخشاب الطاعنة في السن، ليس الكِبَر الذي يضيف فخامةً للقطَع، وإنما الكِبَر الذي تشيخ معه

الأشياء. لم أكن أعرف أن الأخشاب مثلها مثل الجلد يتجعّد كلما مر عليه الزمن! صبغت الأيام المقاعدَ والمناضدَ بألوان سعادتها وحزنها، فأكسبتها لونًا لا هو بالبرونزيّ ولا الفضيّ. وفزعتُ لإدراك حقيقة أن الأخشاب أيضًا قد تصدأ مثلها مثل المعادن والهواء والنفوس والقلوب أيضًا.

أما الإضاءة في هذا المنزل فقد كانت قليلة ودافئة، تتسلل من شيشٍ خشبيّ يؤدي إلى شرفة عرضها لا يزيد على نصف متر، تستطيع من خلالها سماع أصوات الباعة المتجولّين وأصحاب الدكاكين والصبية الذين لا يكفون عن اللعب في الشارع ليلًا أو نهارًا.

كان هناك أيضًا قفص صغير به طائران من الكناريا، صوتهما آنسني وطمأنني كثيرًا، بعد أن كنت قد جفلت لرؤية الحوائط المهملة التي تقشّر عنها ورقٌ يبدو عليه أنه من بقايا شيءٍ كان في يوم من الأيام زاهيًا وجميلًا. لا يمكنني الجزم إن كان قد انتزع بفعل فاعل، أم بسبب تشرُّب الكِلس من خلفه برطوبة مياه لا أعرف كيف توغّلت وزحفت في كل اتجاه هكذا، لكن على كُلٍّ لو كان الأمر بيدي لأزلتُ كل بقاياه؛ فما أراه الآن شديد القبح ومُقبِض للنفس.

كان هناك جرامافون ذو بوقٍ نحاسيٍّ ضخم، يعتلي في شموخ قطعة أثاث تشبه "بوفيه" لغرفة الطعام، لكنها كانت قطعة فقيرة جدًا لا تناسب وظيفتها الأصلية في حفظ أدوات الطعام الفاخرة، وبالطبع لم يكن في هذا المنزل أي أدوات طعام فاخرة.

على الحائط عُلِّقت بعض الإطارات التي أُجزِم أن ما يعلوها هذه المرة هو الأتربة وليس شيخوخة الخشب، وكانت كل منها تؤطِّر صورةً لرجل أو امرأة، إما يحتضنان آلة موسيقية، أو ينظران إلى الكاميرا بعيون مُسبلَة تدل على الاستمتاع بألحانٍ يمكنك سماعها من نشوة أعينهم، إلا امرأة واحدة توسّطت صورتها الحائط: كانت ترتدي نظارةً سوداء، وتمسك في يدها المرتفعة في مستوى صدرها منديلًا، وقد مال رأسها قليلًا إلى الخلف.

كانت هناك أيضًا في هذا المنزل طاقة عجيبة لم أعرف مصدرها، جعلتني أشعر بحميمية غريبة لم يسبق لي الإحساس بها من قبل، أظن أن لشيب ذؤابة رأس عبد الحميد أثر في ذلك، وربما أيضًا التجاعيد القليلة حول عينَي كريمة اللامعتين، قد أضافت على أجواء المنزل راحة تطبعها خبرات البشر على حوائط البيوت يومًا بعد يوم؛ فتجعلها أكثر تماسكًا وقوة. وقد كان لدى عبد الحميد من الخبرات ما يفوق تجارب خمسين عامًا هي سنوات عمره، والذي يكبُر زوجته بأربع سنوات فقط.

وعندما تم وضعي في غرفتي تفاجأت بوجود رفيق من بني جلدتي سبقني إلى المكان: كان هناك مهد آخر مما أثار تعجبي، لماذا يحتاج أصحاب البيت إلى مهدين؟! كان الآخر ضخم الجثة، ذا لون طبيعي دون مساحيق أو طلاءات، لم يكن من خشبٍ فاخرٍ وجديدٍ مثلي، ولكنه كان يبدو طيب القلب؛ فقد ابتسم عند دخولي إلى الغرفة ورحّب بي وكأننا

أصدقاء عمر.

في الحقيقة، لقد أدركت في هذه اللحظة أنني حزين بسبب فراق كوكو؛ فالأماكن الجديدة دائمًا ما تُشعرنا بالاشتياق إلى الأصدقاء والأحباب؛ وبالتالي لم أكن مستعدًا لعقد أيّة صداقات جديدة في الوقت الراهن؛ فآثرت السكوت.

حاولت الاستسلام لتعبي وقررت أن أغفو قليلًا، فإنّ الثرثار خفيف الظل، "عم نقطة"، أبَى إلّا أن يمنحني أول رهان في سلسلة رهانات لن تنقطع على طول صداقتنا، التي قرر هو أن يقيمها معي دون أي خيار لي.

- أراهنك على أنك ستكون من نصيب إيمان وأنا سأكون من نصيب أمل؟

دون اكتراثٍ أجبته:

- هل يملك أصحاب البيت توأمًا من البنات؟

أجابني بسخرية:

- من الواضح أنك فَطِنٌ يا صديقي العزيز، أولاد الأصول دائمًا هكذا؛ يملكون من الذكاء ما يصعب على أبناء البلد أمثالي فهمه.

شعرت أنه يسخر مني، فأصابني الغَمُّ مرة أخرى وأجبته بضيق:

- عم نقطة، أنا مُتعَب وحزين، أقسمت عليك أن تتركني وشأني.

قَطّب نقطة جبينه وأجابني:

- صلِّ على النبي في قلبك يا بني، إن مع العسر يسرًا.. سأتركك اليوم لترتاح، لكن إن كسبتُ الرهان فستبدأ في الحكي لي من الغد.

- أي رهان؟

أطلق نقطة زفرةً كادت تطيّر شراشفي، محاولًا بها أن يخفف حرارة حزني:

- صبّرني يا رب، ويقول الناس إنني مصابٌ بألزهايمر! من الواضح أنني لست وحدي! الرهان هو أن أمل ستكون من نصيبك وأن إيمان ستكون من نصيبي.

ضحكت بقوة حتى كادت أضلعي تتفسخ:

- يا عم نقطة، لقد كان رهانك الأول أن إيمان من نصيبي وأمل من نصيبك، والآن تغيّر الرهان؟

- لم أغيّر شيئًا، أنت لم تسمعني جيدًا من البداية، أنت شابٌ أزعَن تفتقد التركيز، ومن الواضح أنك ستزعجني كثيرًا.

ضحك كلانا، لكني لم أعرف قَطُّ إن كان فعلًا ينسى، أم أنه كان يدّعي هذا الأمر بعض الأحيان كحيلةٍ منه لتلطيف قسوة الحياة.

كان صوت الصغيرتين جليًا خارج الغرفة: إحداهما تبكي، والثانية تغمغم، أما عبد الحميد وكريمة فكان صوت

تسامرهما يذيب القلب. تذكّرت كوكو ولحظاتِ أُنسِنا وانسجامنا، وعلمت أنني لن أنساها أبدًا ما حييت.

تظاهرت بالنوم بينما عم نقطة، ككل العجائز، غطّ في نومٍ عميقٍ ومفاجئ، أكّد صدقه صوت شخيره الذي كان لا يُمكن أن يسمعه سوى الجماد أمثالنا؛ وإلا لكان قد أُحيل على المعاش، وحُرِمَ من منصبه كمَهْدِ أطفال؛ لأنه من المستحيل أن ينعم أي طفل صغير بنوم هادئ، في ظل وجود هذا الصوت الذي يصمُّ الآذان بمعزوفته ذات النغمات الشاذة المزعجة والمرعبة في بعض الأحيان.

عندما أتى الليل ظهرت الصغيرتان أخيرًا، كمَلَكين من الجنة ذاتها التي جاء منها بيتر. لم أكُنْ أبالي أيتهما ستكون من نصيبي؛ فكلتاهما رائحتها كالمسك، وكلتاهما نائمتان.

يحمل عبد الحميد الفتاة التي يبدو عليها أنها أكبر قليلًا، وكانوا ينادونها "إيمان"، بينما تحمل كريمة الفتاة الأخرى والتي كان اسمها "أمل".

تذكّرت كلمات كوكو الأخيرة لي، عندما سألتها إن كنّا سنلتقي ثانيةً أم لا: "دائمًا هناك أمل".

الفصل الثاني

يقول رفيقي إن كريمة وعبد الحميد عاشقان، تعرّفا إلى بعضهما منذ ما يقارب الثلاثين عامًا. جاء عبد الحميد من أرياف مصر إلى المحروسة ليحقق حُلمه في أن يصبح عازف عود، بعد أن صبّ عليه والده الحاج فاروق اللعنات عندما فشل في إقناعه بأن يرتجع عن طريق الشيطان، ويترك الموسيقا لأهلها، ويبقى في بلدته يستيقظ باكرًا ويستخدم صوته العذب في دعوة المُصلّين بتكبيراتٍ خاشعةٍ من مُكبّر الصوت الصدئ المُعلّق على باب مسجد قريتهم؛ ليحث النائم على الاستيقاظ وأداء صلاة الفجر، ثم يخرج إلى الأرض يحرثها ويبذرها ويسقيها. وبينما كان الحاج فاروق يحاول إقناع ابنه، كان الابن ينتهز كل فرصة ليختلي بعوده ويصقل موهبته في العزف والغناء، حتى وجد فاروق أنه لن يستطيع زعزعة إصرار ابنه باللين؛ فقرر استخدام آخر وسيلة ضغط في جعبته: وهي إما أن يرضخ له ابنه ويُخرِج هذه الآلة اللعينة من منزلهم، أو أن يأخذها ويخرجا معًا دونَ عودةٍ للأبد. ولأن عبد الحميد كان شابًا يظن أن موهبته ستأخذه إلى حياة غير الحياة؛ فقد اختار العرض الثاني، وذهب إلى القاهرة ليبحث عن فرصةٍ للتميُّز بين عشرات بل مئات العازفين.

دق عبد الحميد الأبواب، منهم ما فُتِحَ له للعمل مقابل لقمته ونَظْمتِه، ومنهم ما أُغلِقَ في وجهه دون أي سبب أو إجابة.

وبقيَ الحال هكذا لشهور، إلى أن هداه أبناء الحلال إلى فرقة مغمورة في أحد الأحياء الشعبية القديمة، التي تبحث عن عازف عود للانضمام فورًا إليها.

ومنذ وَطِئَت قدم عبد الحميد مقرّ الفرقة عَلِمَ أن الله قد سدّ كل السبل من قبل؛ كي يفتح له السبيل الوحيد الذي سيرى فيه كريمة.

رغم جمال صوت كريمة وتفرُّده وإصرار والديها منذ الصِّغَر أنها أمّ كلثوم الجديدة، فإنها كانت مجرد واحدة من الأصوات الموجودة في جوقة الفرقة، ولم يسمح لها صاحب الفرقة أن تغني وحدها قَطُّ؛ وكأنه كان يخشى أن تتحول فرقتهم بسبب جمال صوتها إلى "فرقة كريمة"، وتنفلت بهذا زمام الأمور من بين يديه؛ خصوصًا أن كريمة كانت سمراء، حسناء، بَضَّة، ذات شعر أسود فاحم وعينين واسعتين، يكلِّل جمالها شقٌّ طابَعِ حُسنٍ في ذقنها الدائري الشامخ فيزيدها جاذبيةً وسحرًا.

أما بلبل الفرقة ومطربها الأول ذائع الصيت "سالم سلّام"، فكان يرفض رفضًا تامًّا أن يبقى في الفرقة يومًا واحدًا إذا ما بدأت النساء في الغناء منفردات، إذ كان من الواضح أنه يخاف أن يضيف حُسنُهنّ إلى صوتهن العذب ميزةً إضافيةً عنه؛ فيسحبن البساط من تحت قدميه، ولم يكن صاحب الفرقة على استعداد أن يُغضب سالم سلّام نجم نجوم الأفراح الشعبية مهما كان الثمن.

وتمكّن عبد الحميد من تثبيت أقدامه وإظهار موهبته للجميع في الفرقة وخارجها، لكنّ أهم إنسان كان يرغب عبد الحميد في لفت انتباهه هو كريمة، والتي كانت حينها تتعامل معه بتحفُّظٍ شديد.

ستمر الأيام، ويضحكان مرارًا على طريقتها الجافة في التعامل معه وقتها، رغم اعترافها لاحقًا بأنها كانت تحمل له في طيّات قلبها شوقًا لم يعرفه القلب من قبل.

وبعد تبادل الاعترافات بفترة قصيرة تزوجا؛ فقد كان الحب في ذلك الزمن أقوى من الفقر والغِنَى بكثير، بل وحتى أكون أكثر دقة: لم يكن هناك صلة بين الحب والمال من الأساس.

ومع وجود الموسيقا والغناء أصبحت الحياة ملونة بلون بهجة العيد، والقلب أقوى من الاستسلام لأيّ شيءٍ يعكر صفوه، حتى ولو كان عدم رضى الحاج فاروق الذي أصر أنه لن يغفر لابنه أبدًا مهما مرت السنون.

وأصبح الحب والزواج في الفرقة مُعديًا تمامًا كالجائحة الإسبانيولية؛ فتزوج سالم ونهاد، محمد وصابرين، وعلي وعالية، واللذان كانا آخر من تزوج وأول من رُزِقَ بمولود.

وتمت تسمية الطفل باسم بركة، والذي حلّت بميلاده البركة الحقيقية على الفرقة؛ فأصبح الطلب عليها عشرة أضعاف ما كان الوضع عليه قبل ميلاد الصغير، وتفاءل صاحب الفرقة ببركة، وقرر تغيير اسم فرقته من فرقة الفن الحديث إلى فرقة البركة.

زادت التعاقدات، وزادت معها الأموال، وكلما تحسنت أحوال عبد الحميد وكريمة، أرسل المراسيل محاولًا إعادة حبلِ الوُدّ الذي انقطع مع والده، لكنّ الرفض دائمًا كان هو الجواب، فلا الهدايا شفعت، ولا الأموال أثبتت له أن ابنه كان على حق.

بدأت بشائر الحب تظهر على أنثى وراء أنثى: هذه تسمّي ابنتها سعدية، وهذه تسمي ابنها نعيم، وكأن كُلّ واحدةٍ منهن أقرت أن الأسماء التي يطلقنها على صغارهن ستكون إشارة وعلامة لما سوف تئول إليه حياتهن وحياة فرقة البركة جميعًا.

وانتظرت كريمة طويلًا، سنواتٌ تمر دون أن تنمو في داخلها بذرة العشق السرمدي، وبدأت تذبل كوردةٍ تشتاق إلى الماء، وكان عبد الحميد رغم قلقه يحاول طوال الوقت أن يُطمئِنَها، يُقسم لها أن الله سيرزقهما، يضحك ويقول لها: غدًا ستترحّمين على أيام الراحة من دون بكاء الأطفال، فتجيبه في دلال: ستساعدني يا عبد الحميد، ولن تتملّص من دورك في الأبوّة بحجة أنك رجل لا تعرف كيف ترعى طفلًا.

يضحك ليغيظها:

- أنا فعلًا لا أعرف كيف أرعى طفلًا؛ فأنا رجل.

تجيبه في دلال:

- أنت أفضل رجل على وجه الأرض.

تبدأ الأحلام العريضة تنسج خيوطها في عقليهما.

يدندن عبد الحميد ليحثها على الغناء:

- "جميل جمال.. مالوش مثال.. ولا في الخيال.. صدق اللي قال.. زي الغزال".

- "ليه الدنيا جميلة وحلوة.. وأنت معايا.. ليه تخلي القلب في نشوة.. وأنسى أسايا؟".

وعندما كان عبد الحميد يختلي بنفسه كعادته بعد كل صلاة يفكر في أبيه وغضبه عليه، يرتعب من أن يكون الله يعاقبه لأنه لم يُرضِ أباه، يتضرع لربه بالدموع:

- "رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ"(1).

ثم يستمر في الحَوقَلة ويُكثِر من الاستغفار.

يتذكر عبد الحميد حين كان صغيرًا يجلس في كنف والده ويستقبل معه رجال البلدة: هذا صديق يسأل سؤالًا في الشرع، وهذا آخر يطلب النصيحة. وكان قد جاءه في إحدى المرات صديق يسأله الدعاء له بالذرية الصالحة، بعد أن فقد الأمل في الإنجاب؛ فنصحه الحج فاروق بالاستغفار، قال له إن هذا هو المفتاح؛ لأن الله قال في كتابه الكريم: "فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (11) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (12)"(2).

تعلق عبد الحميد بالأمل وبذكرى والده؛ فلم يمر عليه يوم

دون أن يستغفر مائة مرة في الصباح ومثلها في الليل.. لكنّ أمر اللـه لم ينفذ بعد!

واستمرت النساء في وضع المواليد واحدةً تلو الأخرى، وكلما كثُر الأطفال نقصت النساء العاملات في الفرقة، مرة بسبب الحمل، ومرة لرعاية الطفل، ومرات بسبب أدوار البرد والإسهال التي لا تنفكّ تترك منزلًا حتى تتوجه مباشرةً إلى منزل آخر بسرعة البرق.

بقيت كريمة وحدها هي المرأة التي لا تتغيب عن الفرقة حتى في أيام مرضها هي شخصيًا، وكان لعملها الدؤوب المستمر الفضل في تحسُّن دخلها هي وزوجها أكثر بكثير من الباقين. وكعهد كل أعضاء فرقة البركة، كانت كريمة هي الأخرى اسمًا على مسمى؛ فقد كانت تمدُّ يد العون لكل الأصدقاء، بقدر حزنها كانت تسعدهم، تساعدهم وتُقرِضُهم وتهاديهم كلما استطاعت.

وكان الجميع دون استثناء يدعو لها هي وزوجها بأن يرزقهما اللـه بالذرية الصالحة التي ستقرُّ أعينهما، وستبهج الجميع ببهجة الأبوين بإذن اللـه، لكنّ العاطي مع مرور السنوات لم يأذن بالعطاء.

---

(1) سورة الأنبياء: الآية 89.

(2) سورة نوح: الآيات 10-12.

الفصل الثالث

في أحد الصباحات ذهبت عالية أمّ بركة - الذي لم يغد صغيرًا، فقد أتم عامه العاشر منذ أيام - إلى كريمة صديقتها القديمة، في زيارةٍ تختلف عن تلك الزيارات التي اعتادت عليها النساء حين يكون الرجال متمركزين على قهوة الفنانين. فعلى الرغم من أن عالية وجميع نساء الفرقة كُنّ يَزُرنَ بعضهن دائمًا دون موعد مسبق وبلا هدف، فإنّ زيارة عالية هذه المرة كانت لمهمة محددة؛ فقد شاهدت عالية بالأمس أحد الأطباء في فقرة طبيبك الخاص على التليفزيون، يتحدث عن موضوع شائك أصبح حديث الصحف والشيوخ والأطباء جميعًا هذه الأيام: شيء يُسمى "أطفال الأنابيب".

لا تعلم عالية كثيرًا عنه، ولم تفهم شيئًا عندما حاولت وهي تستمع إلى الطبيب بالأمس، لكنها استنتجت من مشاهدته أمرين في غاية الأهمية: الأول هو أن أطفال الأنابيب طريقة ستُمكّن النساء اللاتي تأخرن في الإنجاب، من تحقيق حلمهن بأن يصبحن أمهات، والثاني هو عنوان الطبيب الذي كان قد أطلّ من شاشة التليفزيون متحدثًا بثقةٍ عن سحر هذه العملية.

انتظرت كريمة عودة عبد الحميد على أحرّ من الجمر؛ لتخبره بما قالته لها عالية من معلومات، رغم عدم دقتها أو فهمهما الكامل لها بشكلٍ يجدد فيهما الأمل.

سردت له كل ما سمعت، وأخرجت الورقة المدوّن عليها اسم ورقم هاتف الطبيب، وتوسلت إليه أن يجرّبا، لكنّ عبد الحميد كان غير مطمئن للفكرة، ويخاف أن تكون حرامًا؛ فقال لها: انتظري قليلًا حتى نتأكد من إجازة الشيوخ لها.

ولم يكن يهم عبد الحميد من كل الشيوخ إلا والده الحاج فاروق، والذي كان قد تتلمذ على يدِ عالِم جليلٍ من فقهاء بلدتهم، كما أنه لا يترك كتب الفقه من يديه أبدًا، طالما أنهى عمله في الحقل.

أخذ عبد الحميد عربة أجرة وسافر دون تفكير إلى بلدته بعد غياب استمر أكثر من أحد عشر عامًا. كان ينظر إلى كُلِّ شيءٍ وكأنه يراه للمرّة الأولى: كل الطرق اختلفت، كل الأراضي تغيرت، وجفل عندما تخيل أن وجه أبيه هو الآخر بكل تأكيد سيكون غير الوجه الذي أشاح عن نظره بغضبٍ يوم قرر الرحيل.

دق عبد الحميد باب الدار الذي بقيَ على حاله في مكان لا يعرفه. سمع وقع خطوات أبيه، ورغم أنها قد ثقلت فإنه لن يخطئها أبدًا؛ فلطالما بثّت في نفسه في الماضي الطمأنينة والأمان، ويعرف أن أباه رغم حزنه منه لن يخذله أبدًا، ولن يردّه خائبًا، وهذا ما حدث بالفعل.

عندما رأى الحاج فاروق ابنه منتصبًا أمامه لم ينطق سوى بجملة واحدة أذابت جليد سنوات الجفاء:

- لماذا تأخرت يا بنِ الكلب؟

ارتمى عبد الحميد في حضن أبيه، وقبّل يديه أكثر من ألف مرة محاولًا تعويضه، وتعويض نفسه قبله، عن سنواتٍ طويلةٍ من الحرمان. وبعد أن هدأت الأشواق قليلًا سأل عبد الحميد أباه السؤال الذي أتى من أجله:

- جرّبتُ الاستغفار كثيرًا ولم يفلح، فهل لي أن أجرب هذا الأمر الجديد؟

أجابه أبوه:

- إن جرّبتما العملية دون يقين بأن الاستغفار هو الذي سينجزها، ويعطيك الله بفضله؛ فلا لزوم لتضييع الوقت والجهد والأموال.

- يقيني بالله كبير.

- إذن فلتتوكل على الله.

كانت كريمة على مشارف الثلاثين حين بدأت رحلتها الشاقة مع العمليات، رحلة استمرت ثمانية عشر عامًا، تخللتها إحدى عشرة عملية بلا نتيجة غير نتيجة التحليل اللعين: "سالب".

تبدّد الأمل، بالإضافة إلى الصحة والسلام النفسي اللذين أصيبا بشروخ لا يمكن أن يداويهما إلا شيءٌ واحدٌ فقط: بكاء طفلٍ صغيرٍ يُبدّد وحشة السكون الذي يملأ منزل الزوجين، المنزل الذي غابت عنه ألحان الموسيقا والأغاني؛ فاستبدلا في البداية الدعاء والقرآن بها، ثم حلّ لاحقًا الصمت التام

الذي صار يُمكن سماعه. وتعلّمت كريمة أن للصمت حضورًا وهيبة؛ خصوصًا هذا الذي يفرضه الحزن والألم والعَوَز معًا؛ فقد بدّد الزوجان كل ما كانا يدخرانه في تجربة أخرى مع طبيب آخر، لعلّها تكون هي التجربة الرابحة.

حتى الدعاء الذي لم ينقطع، والثقة بالله التي كانت تملأ قلبيهما في البداية، تحولت مع الأيام إلى مقامرة على الحصان الفائز "أقصد على الطبيب الفائز".. وككل مدمني الرهانات، مع تكرار الخسارة أصبحت العصبية هي السمة الغالبة على أيامهما، وصار العمل هو الوسيلة الوحيدة، ليس لتحقيق الذات، وإنما للحصول على زادٍ يسمح بالمزيد والمزيد من المحاولات.

ورغم مشاعر الحب التي كان جميع الأصدقاء من أعضاء الفرقة يكنّونها للزوجين، فإنهم أخذوا يقلّصون لقاءاتهم في السنوات الأخيرة إلى الحد الذي يُبقي الودّ لكنه يمنع الأحاديث المطوّلة، مكتفين بالدعاء لهم في سريرتهم بعد أن استشعروا أن الحديث بات مؤلمًا؛ حيث يدور طوال الوقت عن التجارب الأخيرة التي لم تتوقف قَطّ. كما لاحظت النساء أن كريمة أصبحت شديدة الحساسية تجاه أبناء أصدقائها، تخاف أن تُثني على جمالهم فيصيبهم مكروهٌ تُتهم بسببه أن عينها كانت السبب، وفي الوقت ذاته تخاف ألّا تمنحهم أي اهتمام فتُتهم بالغيرة من وجودهم. أما النساء بدورهن فكن يتحاشين الحديث عن تربية الأبناء ومشاكلهم ونوادرهم حتى لا ينكأن جرح كريمة التي كانت تُؤثِر الصمت؛ حتى

أصبح وجودها حملًا رغم خفته تخشاه النساء.

إلى أن حدثت المعجزة.

الفصل الرابع

عندما استيقظنا في الصباح كان ذهني أكثر صفاءً، وأصبحت عندي رغبة في سماع المزيد من حكايات عم نقطة. من الواضح أن اختفاء صديق لا يعوَّضه إلا وجود صديق آخر؛ وكأن القلب والروح والنفس لا يقبلون بالوحدة مهما حاولنا أن نثنيهم عن ملء مكان الغائبين بغيرهم.

رغمًا عني أصبحت أكثر تعلقًا بعَمّ نقطة، والذي كان طوق نجاتي من الغرق في حزن الفراق، ولا أستطيع أن أنكر أن حكاياته، بل طريقة حكيه سواء أكان كاذبًا أم صادقًا، كانت ممتعة بالنسبة لي أكثر مما ظننت.

سألته لكي أُشعلَ فتيلَ الحماس عنده ليبدأ في السرد:

- كيف عرفت هذه الحكايات القديمة كلها يا عم نقطة، وأنت مجرد مهد أطفال لم تدخل هذا المنزل إلا منذ أسابيع قليلة عندما وُلِدَتِ الطفلتان؟

قهقه قهقهة العجائز التي تظن أن أرواحهم ستفارق أجسادهم قبل أن تكتمل. حاول عبثًا أن ينطق بعض الكلمات لكنها كانت تتوه بين ضحكاته التي تشبه أمواجًا تضرب السابحين في بحرٍ ممتعٍ يستقبلونها بوجوهٍ مستمتعة. سعل بضع سعلاتٍ خفتُ أن تكون الأخيرة في حياته، وكنت أنظر له مترقبًا لمعرفة ما سينتهي به هذا المشهد الهزلي الذي تقابَل فيه الموت والحياة. وعندما استجمع روحه مرةً أخرى أجاب:

- أيها الساذَج، اسمي نقطة؛ لأنني كنت هدية من كريمة لعالية عندما وُلِدَ بركة أول أطفال فرقة البركة، ثم انتقلتُ من منزلٍ لمنزل ونما في جوفي طفلٌ بعد طفل. وعندما انتهت نساء الفرقة جميعهن من الحمل والولادة، وأصبح جيل الأبناء في المدارس والجامعات، عدتُ إلى كريمة كنوعٍ من الأمل في أن حُلمها سيتحقق؛ حيث لن ينتهي دوري في حياة فرقة البركة إلا عندما أؤدي مهامي في منزل عبد الحميد. وها أنا عشت معهم كل تفاصيل حيواتهم التي امتزجت بعضها بالبعض، وأصبحت عضوًا أصيلًا، ونقطة ذهبت بسعادتها من بيتٍ إلى بيت.

كان الإحراج قد غشّاني حين أدركت أن عم نقطة كان صادقًا في كل كلمة حكاها أو سيحكيها لاحقًا، وأنا الذي كنت أتعامل معه ككهلٍ خَرِفٍ نسج له عقله حكاياتٍ ربما لم تحدث.

بدأت الصغيرتان في التململ بداخلنا. لا أظن أن أصواتنا هي التي أيقظتهما. لم تبكيا، بل أخذتا تُصدران صوت الصيصان الصغيرة ليلفتا نظر أمهما وأبيهما.

ظهر الأبوان من العدم في لحظةٍ من الزمن، وفي يد كل منهما زجاجة رضاعة مليئة بالحليب.

حملا الطفلتين، وقبل أن يتحركا كانت كل طفلة قد التقمت حلمة زجاجتها في لهفة المشتاق، تمامًا كلهفة بيتر لزجاجته، ولهفة نقطة للحكي، ولهفتي على كوكو التي لن أراها مرةً أخرى.

كاد شوقي إلى كوكو يغشاني بحزنه، فإنّ صوت عبد الحميد وهو يبتهل لربه جعل روحي تحلق في سماء ثانية غير سماء حزني وشوقي. كان يقول وهو يهدهد صغيرتَيه:

"يا فاطر الخلقِ البديعِ وكافِلًا

رِزقَ الجميع سحابُ جودِكَ هاطلُ

يا مُسبغَ البرِّ الجزيلِ ومُسبلَ الـ

سِّترِ الجميلِ عميمُ طولِكَ طائلُ

يا عالِمَ السِّرِّ الخفيِّ ومُنجزَ الـ

وعدَ الوفيِّ قضاءُ حكمِكَ عادلُ

عظُمَتْ صِفاتُكَ يا عظيمُ فجَلَّ أن

يُحصي الثناءَ عليكَ فيها قائِلُ"(3)

لن أكذب ولن أدّعي أنني قد فهمت ما يقوله عبد الحميد، لكني أيضًا لن أنكر أن جزءًا مني قد ذاب كالشمع الذي كانت نتالي تحب أن تُشعله في غرفة بيتر.. كنت أحب الشمع، والآن أحببت أيضًا الابتهالات.

وعرفت أن لكل إنسانٍ طريقتَهُ في الحديث إلى الإله، لا يهم أين ينظر ولا طريقة توجيه الدعاء، لكن المهم أنهم كانوا يتحدثون معه جميعًا وكأنهم يرونه، ويوقنون أنه يراهم.

(3) جزء من مجموعه القصائد الزهديات للشيخ العلامة عبد العزيز بن محمد السلمان.

الفصل الخامس

لمرور الأيام هنا رائحة ولون مختلفان.

هنا الأيام لها إيقاعٌ مبهجٌ وراقص، كبندول ساعة يجبرك على تحريك قدميك في نشوة، تك توك تك توك.

أما الروائح فهي مزيج من رائحة البصل والثوم والخل والباذنجان المقلي، رائحة تداعب الأنف ويسيل لها اللُّعَاب ويذوب معها الفؤاد.

يضحك الزوجان وهما يأكلان؛ فيعبق الحب الهواء برائحة أذكى من هذه الروائح التي وددتُ لو كنت إنسانًا لألتهم مصادرها.

يأكلان رغيفًا واثنين وثلاثة وأربعة، ودائمًا ما يقتسمان الخامس بعد أن يدفعه كل واحد في اتجاه الثاني مردّدًا أنه قد شبع. يأكلان في رضى وسعادة؛ وكأن اقتسام الرغيف الأخير قد جدّد أواصر حبهما وعهودهما التي لم يحنث بها أحدٌ منهما من قبل.

كل شيءٍ في المنزل كان ينمو ويكبر: السعادة والحب والهناء والصغيرتان، لكنّ الجميع لاحظ أنهما لا تنموان بالقدر ذاته؛ فقد كانت أمل أضعف من أختها إيمان، لكنّ الأمر لم يُثِر حفيظتهم؛ تجاهلوه لأنهم لم يعودوا قادرين على تحمّل أي خوفٍ آخر، كفاهم ما عانوه طوال السنوات الماضية من توتر وحزن، ويكفيهم الآن أيضًا مضايقات كاظم بن سالم سلام

الذي أخذ مكان أبيه في الفرقة بعد موت والده.

كان كاظم صلف الطباع، ورث من أبيه العناد والكِبر والغرور بصوته الذي ليس له مثيل، وقد كان أبوه قد أسماه كاظم؛ تيمُّنًا بهذا المطرب الذي خلب ألباب النساء عندما غنّى شعر نزار قبّاني. لكنّ الابن - ورغم صوته الرائع - لم يكن يملك طَيبَ اسمه مثل باقي أبناء أعضاء الفرقة؛ فكاظم لا يستطيع السيطرة على غضبه أو غيظه. وكان كلما طلبه المتعاقدون بالاسم، ازداد تكبُّرًا وزهوًا بذاته، وازداد فظاظةً وعدوانيةً؛ خصوصًا مع هؤلاء الذين كان والده يضمر لهم الكراهية في الخفاء، وكان عبد الحميد واحدًا منهم.

تجاوزت سخافات كاظم الحد: يتعمّد إحراج عبد الحميد أمام الفرقة وأمام الجماهير، يعدّل عليه الألحان ويتهمه بالعَجز والعَجز عن تحديد السلّم المناسب لخامة صوته التي ليس لها مثيل، وفي النهاية أحضر عازفَ عودٍ جديدًا إلى الفرقة، وقرر أنه لن يغني أمام عبد الحميد الذي يظلم صوته بأوتاره النشاز.

حاول بعض أعضاء الفرقة القدامَى التدخُّل، لكنّ كاظم كان أكثر إصرارًا على موقفه، وكأن عبد الحميد هذا هو عدوُّه اللّدود، وتطور الأمر بأن أقسم أن من سيتدخل في هذا الأمر فلا يلومنّ إلا نفسه.

كان كاظم، والحق يقال، هو أيقونة الفرقة وتَمِيمة الحظ التي ازدهر بوجودها الحال، بعد فترة شباتٍ عظيمةٍ كادت

معها الفرقة أن تفقد اسمها، لكنه أنقذها عندما كانت قابَ قوسين أو أدنى من انحلالها؛ فلم يستطع أحد تحمُّل غضبته، ولم ينهره أحد بسبب غلظته؛ فتمادى هو، ورضخ الجميع وكأنه وَليُّ نعمتهم ورازقهم.

أما عبد الحميد فقد استقال من الفرقة وراح يبحث عن حفلات ومطربين بعيدًا عنهم.

مرت الأيام، وصبغها الفقر اللعين بلونه، وتسلل الخوف من المستقبل كحيّة تزحف على الأرض لتطبق فكّيها على قلب الرجل وزوجته دون رحمة أو رأفة.

ومرة أخرى سكتت الموسيقا في منزل عبد الحميد، لكنّ غناء كريمة كان لا يزال مستمرًا رغم صبغة الحزن التي كَسَتْه.

وأدركتْ حينها أن الابتهالات من دون موسيقا خشوع، لكنّ الغناء من دون موسيقا يأس!

لم تعد لديهما أيّة مدخرات ليتكآ عليها، لا قطعة ذهب يُمكن بيعها ولا قطعة أثاث قيّمة يُمكن الاستغناء عنها مقابل حفنة من الأموال؛ فقد أتت عمليات التلقيح الصناعي على كل مدخراتهما، ولم يحسبا حسابًا للغدر.

كانا يحرثان الأرض بكل جهدهما، وبذرا فيها بذرتهما التي نمت، لكن أين الماء الذي سيسقيان به زرعتيهما لتبقيا في قيد الحياة؟

جنيهات قليلة في جيب عبد الحميد يتحصّل عليها كل

بضعة أيام من العزف وراء مطرب أو راقصة في فرح شعبي، لا أحد يهتم فيه لا بالغناء ولا بالموسيقا، فإما مخمور أعمته البيرة والحشيش، وإما متدين يتأفف ويستغفر الله، ويكيل اللعنات على هؤلاء الذين يعتلون المسرح الخشبي المهترئ من كثرة ما حلّ وما نصب.

كان عبد الحميد يعود في كل مرة من هذه الأفراح بحالٍ غير الحال: مرة يستغفر الله ويقسم أن رزقه حرام؛ ولذلك لا يبارك فيه الله، ومرة يعود مسطولًا من سيجارة الحشيش التي جاد عليه بها المطرب المغمور، أو أحد أعضاء الفرقة الغريبة التي تتغير كل يوم، ويحايل نفسه اللوّامة فيخبرها أن الحشيش حلال؛ فلا يمكن أن يحرّم الله شيئًا رائعًا يريح ويُرضي النفس مثل هذا النبات الذي يحسّن المزاج ويرفع معنويات شاربه.

كانت كريمة تصطلي بالرحمة والرأفة التي تكنُّها لزوجها الحبيب، تريد أن تغضب، تريد أن تُوقِفه عن ذل نفسه وإهانة ذاته، مرة بتكفيرها ومرة برميها في المعاصي.

تفكر أن تخبر الحاج فاروق الذي طعن في السن؛ ليتحدث إلى ابنه ويريح قلبه بكلماته، لكنها تخشى أن يغضب منه، أو أن تحدث بينهما مشكلة، حيث أصبح عبد الحميد قليل الصبر لا يتقبل النصيحة.

لو كان بيدها لمنعت نفسها من الطعام والشراب لتوفر عليه مصاريف قُوتِها، لو كان بيدها لأطعمت الصغيرتين من ثديها

الذي عجز عن إدرار الحليب للبنتين؛ فصار لزامًا عليهما شراء اللبن المجفف الباهظ، إلى أن تتمكّن الصغيرتان من أكل الخضراوات المسلوقة، حينها فقط سيكون الأمر سهلًا.

تقول بعض النساء لكريمة: "لا تُطعمي البنتين قبل إتمام ستة أشهر"، وتقول أخريات: "أطعميهما مبكرًا يرتاح بالك وثقِلان على الطعام، أربعة أشهر توقيت ممتاز للبدء بتقديم الطعام الصلب لهما".

تفكر كريمة في أنه لم يمرّ سوى ثلاثة أشهر ونصف الشهر منذ ميلاد البنتين، وأن حساب عمرهما سيختلف عن حسابات باقي الأطفال، تعيد كريمة الحسابات في رأسها، هذا يعني أن البنتين تبلغان من العمر الآن ثلاثة أشهر؟ لا بل شهرين إلا بضعة أسابيع؟ يا إلهي، لا أعرف كيف أحسب عمر بِنتيّ لأعلم متى يمكنني إطعامهما!

عبد الحميد حزين ولا يستطيع أن يتحمل مصاريف هذا المسحوق الأبيض.. تُسِرُّها كريمة في نفسها، لكنها لا تبوح بها أمام زوجها حتى لا تُشعره بعجزه.

يُخرِج غضبه أحيانًا عليها متعمدًا لأنها لم تعدّ الطعام، يتمنى أن تصرخ فيه وتجيبه بالمثل الشهير: "اطبخي يا جارية، كلّف يا سيدي!".

يريدها أن تفقد أعصابها، تخاصمه ويخاصمها، ثم تأخذ بناتها بضعة أيام إلى منزل أهلها؛ حينها ستأكل أكلة جيدة، وستجد مَن يساعدها في رعاية البنات، لكنها حليمة، تبتسم

ابتسامة واسعة وتقول: "اللي قبلنا قالوا البركة في الحبتين، وإذا فاتك الضاني عليك بالحمصاني".

يبتلع حزنه وفشل خُطّته وغضاضته، ويقبّل رأسها ورأس ابنتيه، ثم يذهب إلى النوم يغطُّ فيه ساعاتٍ طويلةٍ؛ هربًا من الإحباط والجوع وطيبة قلبها.

يتمتم قبل أن يُسلِم روحه لسلطان النوم:

- يا رب، ألم تكن واحدة تكفي؟

تنهش الكلمات قلبه، فيستغفر ويستسلم للنوم بعد أن يطحن آلاف الأفكار تحت ضروس خيبة أمله. يزفز زفرةً تستطيع من سخونتها حرق المنزل من حوله، يخبر نفسه أنه الآن فقط أدرك لماذا يبيع أناس بعض أبنائهم مقابل المال؛ ليستعينوا به على تربية من بقي منهم.

يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ينام على جانبه الأيمن، ويغيب عن الدنيا إلى عالمٍ مليءٍ بأحلام وردية، فيه البنتان تلبسان أحلى الفساتين، وتأكلان أشهى الطعام، أما كريمة فتتزيّن فيه بالذهب والياقوت والمرجان.

الفصل السادس

أشعر ببللٍ شديدٍ على سطحي؛ أظن أن حفّاضة أمل امتلأت عن آخرها وبدأت في التسريب.

ستبكي الآن وتطلب لنا العون، وستأتي كريمة فورًا كعادتها لتساعدنا.

يزداد البلل دِفئًا ولُزوجةً، تنضح أمل بسوائل مختلفة الكثافة والرائحة من كل جسدها: قَيءٍ وبُرازٍ وعرقٍ.

لا تبكي، أشعر بها تختنق، تحاول الصراخ ولا تستطيع. أهتز ربما تساعدها اهتزازاتي، لكن بلا جدوي. تحمرّة الأولىأخرى فيتحشرج الصوت بارتدادِ القيء إلى بلعومها الصغير.

أهتزُّ أكثر فأكثر، لكن هذه المرة خوفًا وليس محاولةً لتهدئتها، ولا محاولةً لحثّها على البكاء.

أقرر أنا طلب المساعدة، لكني لا أستطيع التكلّم سوى مع الجماد. تُرى مَن يستطيع مساعدتي؟ لا حيلة أمامي الآن سوى إيقاظ عم نقطة؛ فربما بخبرته مع الأطفال يستطيع مساعدتها ومساعدتي.

أحاول أن لا أفزعه حتى لا يُصاب بنوبة "خشبية" على غرار النوبات "القلبية" التي تصيب البشر، أحاول أن أكون هادئًا وأنا أنادى اسمه، لكنّ الخوف الذي اعتراني لهفةً على أمل جعل صوتي صارخًا رغم جميع المحاولات:

- أنقِذني يا عم نقطة، أمل تموت، إنها تختنق!

زاد البلل على سطحي عندما أدركت للمرّة الأولى أني أمتلك دموعًا. كان الرعب يخترق ضلوعي، وكأنه سهامٌ من حزن تضرب سحب قلبي، فتهطل الدموع دون توقف، كأمطار غيثٍ تحاول أن تُحيي أمل التي جفّت بعد أن أخرجت كل ما كان في جسدها الضعيف من ماء.

أصاب عم نقطة الرعب الذي أصابني، كان يفكر في كيف يستطيع أن يقدم يد العون لهذه المسكينة التي تُحتضَر.

حاول أن يخفي رعبه؛ فهو للمرّة الأولى في حياته يواجه الموت وجهًا لوجه. للحظةٍ فكّر في اقتراب أجَلِه، وعجزه، وجزعه، وقلّة حيلته.

كانت أطرافه تتجمّد من الخوف، وأصابت برودته إيمان التي استيقظت بسبب صقيعٍ ضرب قدمها العارية؛ فبدأت في البكاء ثم الصراخ، حتى سمعتها كريمة وأتت إلى الغرفة، وبينما كانت تفتح الباب استقبلتها رائحةٌ آسِنَة، استدرجت الأم بفطرتها إلى الطفلة الساكنة التي بدأ وجهها في التلوّن باللون الأرجواني. وفي لحظة توقف فيها الزمن، وتوقفت كل أصوات الكون إلا من صرخة أم مرعوبة تتعلق بالأمل، زأرت بكل ما تحمله من قوة لبؤةٍ تصارع من أجل صغارها، باسم عبد الحميد الذي كان يقف أمام المشهد الدرامي وكأنه يشاهد فيلمًا لا يقوم فيه بأي دور، مُتسمّرًا بعينين دامعتين يرنو إلى السماء ويتمتم:

- لم أكن أتبطّر على نعمتك يا رحيم، يا رحيم، يا رحيم..

وأخذ يردد كلمة "يا رحيم" عشرات المرات، يعلو معها صوته في كل مرة أكثر فأكثر، إلى أن غاب الأربعة وخيّم الصمت على المنزل لأيام لا أتذكّر عددها.

كان بداخلي سؤال وحيد، لكني خِفتُ أن أُخرِجه من صدري حتى لا تصيبني لعنة الفأل السيئ، فقررت أن أستبدل بسؤالي دعاءً:

- اللهم اجمعني بأمل مرة أخرى.. يا رب.. يا رحيم.

وظللت أكرر "يا رحيم" أنا الآخر عشرات المرات، مئات المرات، آلاف المرات، حتى مرّت الساعات وثقلت الكلمة، والهواء، والحزن الذي ملأ نفسي، وبدأ اليأس يتسرّب داخلي، حيث لم يعُد أحد إلى المنزل لأيام.

الفصل السابع

كنا لا نزال أنا وعم نقطة صامتين لا نقوى على الحديث، ننتظر في ترقُّب أن نلتقط صوتًا يُعيد الحياة إلى المنزل، أي صوت يخبرنا أن الأمور بخير، أي صوت غير صوت الهاتف اللعين الذي أرعبنا في المرة الأولى التي رنّ فيها بصوته المزعج: "ترررن ترررن.. ترررن ترررن"، ولا أحد يجيب، لكنه لم يتوقف عن الرنين!

كانت المرة الأولى التي نعلم فيها أن هناك هاتفًا في هذا المنزل؛ فقد كان الزوجان في حالة تقوقع منذ زمن على حدّ قول عم نقطة. قال إن الأصدقاء ظهروا لأيام قليلة بعد ولادة الصغيرتين، لكنّ طبع كريمة وعبد الحميد الانطوائي الذي اكتسباه في السنوات الأخيرة لم يكن ليتغير بوجود الصغيرتين، بل على العكس؛ صارا أكثر حرصًا على الاستمتاع بهدية الله لهما والتي تأخرت كثيرًا.

لم يكونا على استعداد لتضييع الوقت مع أحد.

ملّ الهاتف من الرنين دون استجابة، أو بالأحرى ملّ المتصِلُون الذين لم يجدوا أي رد.

ربما عرفوا أخبارًا من مصادر أخرى غير الهاتف، وأدركوا عدم جدوى الاتصال.

وعاد الصمت للمنزل الذي اسودّت حيطانه من الخوف، وأظلم كثيرًا بسبب الستائر المغلقة التي لم تجد أحدًا يفتحها.

كان هناك القليل من ضوء القمر الذي احتبس داخل البيت في الليلة الأخيرة قبل مرض أمل، لكنّ الضوء تسرّب مع الوقت، ولم يعد هناك داخل المنزل سوى الحزن والظلام.

بعد مرور أربعة أيام، استيقظنا أنا وعم نقطة على صوت نبش أصابع عبد الحميد في بعض الأوراق، قال عم نقطة:

- تُرى، عمّ يبحث عبد الحميد في الأوراق القديمة؟

- ولماذا جزمتَ أنها أوراق قديمة؟

- دائمًا البحث في الأوراق القديمة له صوتٌ أعلى بكثير من الأوراق الجديدة؛ وكأنها وحشٌ تضخّم مع الأيام، وثقلت حركته، وأصبح إيقاظه مزعجًا.

لم ندرك حينها أن عبد الحميد يفتش في أوراقه القديمة عن رقم هاتفٍ في بلدٍ غريبٍ، بلدٍ يُعرف بالبرودة في الجو والمشاعر، ذهب إليه أحد الأقارب قبل أن يتحول هو الآخر لغريبٍ، ويتشبّع قلبه بالبرودة.

فقد كان لعبد الحميد ابن خالٍ ميكانيكي سيارات، "بريمو" مثلما كان يطلق عليه صاحب الورشة، منذ كان صبيًا يعمل تحت إمرة واحد من أباطرة تصليح السيارات في منطقة الحِرفيّين. ولأجل حظه السعيد، زار الورشة في إحدى المرات مهندس يعمل بشركة من الشركات الكبيرة، التي بدأت تظهر في مصر مع أواخر التسعينيّات. توسّم المهندس في صالح خيرًا، وقرر تقديم فرصة العمر له من خلال الشركة التي يعمل بها، فأرسله مع جمعٍ من العمال إلى ألمانيا؛ لتعلُّم تقنيات

تصليح السيارة ألمانية الصنع التي كان مُخطّطًا لها أن تغزو شوارع القاهرة قريبًا.

ذهب صالح إلى ألمانيا، لكنه لم يعُد، ما عاد فقط هو بعض أخباره التي كانت مُفرحة وكثيرة في البداية، لكنها لم تلبث أن تجمّدت مع جليد ألمانيا وندرت بمرور الوقت. وكان آخر هذه الأخبار منذ قرابة سبعة أعوام، عندما ذاع خبرٌ أن ابن صالح، الدكتور كريم الذي تحوّل لاحقًا إلى الدكتور كيم، قد حصل على الدكتوراه في طب الأطفال في ألمانيا.

وللمرّة الأولى يشعر عبد الحميد بسوء حظه؛ لأنه لم يحتفظ برقم صالح الذي كان يبدأ بصفرين. أما والدا صالح فقد رحلا عن الدنيا منذ سنواتٍ، بعد أن فقدا الأمل في عودته، كما أن صالح ليس لديه إخوة؛ وبالتالي ليس هناك أمل في إيجاد رقم هاتفه إلا من خلال النبش في أوراق الماضي؛ لربما يجده ويتجدد مع ظهوره الأمل في شفاء أمل، التي أقرّ الطبيب في قصر العيني أن هذه الحالة النادرة من المرض ليس لها علاج إلا في "بلاد بَرّه".

وبما أن عبد الحميد لا يملك من الدنيا سوى ابنتيه، وزوجته، وحطامِ منزلٍ لا يساوي شيئًا، فقد كان الأمل الوحيد الآن هو ابن العم صالح، وابنه الدكتور كيم.

الفصل الثامن

يَئِسَ عبد الحميد ولم يجد الرقم الذي لم يتصور أنه سيكون أمله الوحيد في يومٍ من الأيام. حياة أمل الصغيرة على المحكّ، وإيمان عبد الحميد هو الآخر على المحك: إيمانه بالله الذي وهبه الهدية بعد طول انتظار، قبل أن يقرر عَزَّ وجَلَّ معاقبته من خلالها على سوء تصرفه خلال الشهور الماضية، وعلى يأسه من رحمته عندما ضاق به الحال، وعلى كلماته قبل الليلة المشئومة، ووسوسة الشيطان له بأن الله قد ابتلاه ولم تكن الفتاتان نعمةً بل نقمة.

يفكر في كل هذا مع ذاته، ويقرر الاستغفار لعلّ الله يُحدِث بعد ذلك أمرًا.

يشعر أنه منافق؛ بداخله لا يزال يشعر أنه لم يكن قادرًا على حفل هدية بهذا الحجم، يشعر أنه يستغفر ربه فقط لينقذه من مأزقٍ لا يستطيع تحمُّل عقباته.

لو استردّ الله عَطيّته هل سيحزن حقًّا، أم سيشعر أن الحمل قد أصبح أخفّ؟ ينقبض قلبه، ويستغفر بصوتٍ مبحوحٍ من الدمع المختنق في مُقلتيه:

- أستغفرُ الله.. يا رب، لقد أصابني الجنون، أرى البلاء نعمةً، أرى الفَقْد عطاءً، اختلط عليّ الأمر يا رب، "وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ"(4).

يستمر عبد الرحمن في التضرُّع تارةً، وفي البحث عن الرقم

المفقود تارةً أخرى. يُجيب على الهاتف الذي عاد للرنين، وكأنه عادت له الحياة بعودة عبد الحميد للمنزل، باقتضابٍ يخبر المتصلين أن لا جديد في حالة الصغيرة، ودائمًا يُنهي الاتصال بجملة تُشعرني أن عبد الحميد طالب فاشل، يحاول أن يُرضي مُعلّمه من خلال الأصدقاء الأحسن منه، والأسوأ سلوكًا على حدٍّ سواء:

- ادعُوا لها، ادعُوا كثيرًا؛ ربما أحدكم للـه أقرب.

كان يشعر أنه لم يغد العبد الذي يستحق رحمة خالقه؛ لأن قلبه لا زال يراوده نفس الشعور بين الفينة والأخرى: ماذا لو انتهى هذا الكابوس وذهبت أمل إلى ربها؟ سيتألمان قليلًا ثم ستستقر الحياة مع طفلة واحدة!

يلطم خدّه بقوة ويصرخ:

- يكفي جنونًا يا عبد الحميد، إن ماتت أمل سينتهي بك الحال في مستشفى الأمراض العقلية، ستكون أنت من قتلتها بأمنيتك السخيفة، سيعاقبك اللـه ولن تستطيع أن ترفع عينيك أمام عين كريمة التي قد تموت كَمدًا.

ينظر إلى سجّادة الصلاة، ثم إلى العود، لا يعرف بماذا يبدأ؟ ولمراتٍ يبدأ بالعود، يدندن بنوتاتٍ قصيرة، ثم يبدأ في الصياح لا في الغناء:

"دار يا دار يا دار، يا دار قولي لي يا دار

راحوا فين حبايب الدار، فين فين قولي يا دار

لياليكِ كانت نور، يسبح في ضَيْه بحور

صرخة صدى مهجور، مرسوم في كل جدار

راحوا فين حبايب الدار، فين فين قولي يا دار

داري الدمع يا عين، داري داري داري

متزوّديش الغيم، فيه رب اسمه الكريم

ساعة المحن ستار".

ينتفض بعد هذه الجملة، يتوضأ ويُسبِغ وضوءَه، وكأنه يغتسل للمرّة الأولى في حياته، كالطفل الذي سُمِحَ له باللهو في مياهٍ تتقطّر من كل أطرافه، ثم يضع السجادة على الأرض ويبدأ في الصلاة.

أما المرات التي كان يبدأ فيها بالصلاة وينتهي عند العود، فكانت دائمًا ما تكون بابتهال: "مولاى، إني ببابك، قد بسطتُ يدي.. مَنْ لي ألوذ به، إلّاك يا سندي؟".

كان هذا هو وضع عبد الحميد في الساعات القليلة التي يقضيها في المنزل، قبل أن يعود إلى كريمة والبنتين في المشفَى، جامعًا بين راحتيه الأمل والدعاء، واليأس وقِلّة الحيلة.

---

(4) سورة هود: الآية 47.

الفصل التاسع

ظل الأمر على هذا المنوال أسبوعًا كاملًا، يقضي عبد الحميد ساعاته في المنزل بين الصلاة والغناء والنوم، والبحث عن رقم هاتف صالح ابن عمه، ربما تكون يد الله تدخّلت ووضعته على الورق الذي اهترأ مرتين: مرة بسبب العمر، ومرة بسبب البحث الذي لم ينقطع.

كان عبد الحميد نائمًا، وكان أقرب للاستيقاظ من النوم، حين رأى فيما يرى النائم أن ابن العم يدقُّ بكفّيه على الباب في قوّةٍ ليوقظه، وهو يأتي له بالبشارة أن إنقاذ أمل أصبح ممكنًا.

بداخل عقل عبد الحميد كان مستوعبًا أنه حلم، لكنّ قلبه كان يأمل في أن يكون حقيقة.

وفي اللحظة التي فتح فيها عبد الحميد عينيه، سمع دقاتٍ على الباب الخشبي ونقرًا خفيفًا على شرّاعته الزجاجية؛ انتفض من سريره وهو يتخيّل أن الحُلم يتحقق.

كطفلٍ صغيرٍ، اتجه إلى الباب، خطواته حذرة مترددة ما بين السرعة لِلّحاق بالحلم، وبين التروّي حتى لا تضيع متعة الحلم بالحلم.

فتح الباب وقلبه يتمنى أن يكون الله قد أرسل له الرؤيا بقدوم صالح قبل مجيئه؛ حتى يتأهل نفسيًا ولا يقع مَغشيًا عليه عندما يفتح الباب فيجده أمامه. رأى من خلف الزجاج

ظِل شخصين، أحدهما أطول من الثاني وأعرض. أصاب عبدَ الرحمن مزيدٌ من التوتر الذي يُعلّج الكفوف ويسخّن الأُذن، فلا تعرف معه إن كنتَ تذوب أم تتجمد:

- يا ربي، ثُرى هل جاء صالح وكريم معًا؟

ظن للحظةٍ أنه لا يزال يحلم، فإنّ صوت طرق الباب ارتفع، وكأن من يقف خلفه شعر بأن عبد الحميد قد فقدَ حاسّة السمع أو ربما.. مات.

هرول عبد الحميد في الخطوات الأخيرة في اتجاه الباب، وأمسك بالمقبض ليفتحه أو ليفتح الستار عن الحلم الذي يتمنى من كل قلبه أن يتحقق: أن يفتح الباب ويجد أمامه الدكتور كيم.. أتراه سيحدث؟

للأسف الشديد لم يكن على الباب سوى علي وولده بركة الذي أصبح أطول من والده، وكانت عالية تجرجر قدميها وهي تصعد السلم، حاملةً بعض الأكياس التي أخذت تُخشخِش كآلةٍ موسيقيّة تُصدر نشازًا لطيفًا.

- هل كنت نائمًا تحت الأرض يا عبد الحميد؟

أجاب عبد الحميد الذي أفاق لتوّه من حُلم كان سعيدًا، على واقع ليس سيئًا:

- اعذرني يا علي، فالنوم قد جافاني طوال الأيام الماضية، خطوة عزيزة يا حبيبي.

دخلت عالية ووضعت الأكياس التي تحملها، بجانب

الأكياس التي كان قد سبقها بها بركة ووضعها بجانب الباب، ثم ارتمت على أول كرسي قابلها لتلتقط أنفاسها، قبل أن تبدأ في إلقاء اللوم على عبد الحميد:

- عتَبي عليك يا عبد الحميد، كيف يحدث كل هذا ولا نعلم إلا بالأمس؟ كان واجبنا أن نقف معكما في مثل هذا الظرف الصعب.

باقتضابٍ أجاب عبد الحميد:

- أنتم أهل الواجب يا عالية.

ثم نظر إلى الأكياس على الأرض واستطرد:

- ما كل هذا الذي أتيتم به؟

- هذا "فضلة خيرك"، بعض الأكلات التي سأعدها سريعًا ريثما تذهب وتُحضر كريمة والبنات من المشفى، أوَلَم تخبر علي أنهم سيعودون إلى المنزل اليوم بإذن المولى؟

- نعم.

هنا تدخّل علي الذي كان لا يزال يحاول التقاط أنفاسه، بعد أن سابق بركة على السلّم غير مُراعٍ لسنّه الذي لم يعُد يتحمل مثل هذه الصبيانية التي لازمته منذ كان غِرًّا.

- ماذا بك يا عبد الحميد يا أخي؟ أين فرحتك بسلامة العروس الصغيرة؟

في وجوم أجاب:

- ستعود لبعض الوقت، لكن إن لم ننقذها بعملية في الخارج سترحل إلى الأبد.

كنت أستمع للحديث لأطمئنّ على صغيرتي، أما عَمّ نقطة فقد كان يستمع وهو في اشتياق لصوت أول طفل حمله بين أضلعه؛ فمنذ سمع عبد الحميد يرحّب بعلي وبركة، حتى تحوّل إلى عاشقٍ يبحث بلهفةٍ بين الوجوه عن حبيبٍ طال غيابه، لكنّ المختلف أن العاشق هنا كان يبحث عن صوت حبيبه الذي لم يكن يعلم حتى هذه اللحظة كيف صار شكلُه.

مرّت حكايات عم نقطة سريعًا في خاطري، وفكّرتُ في يومٍ قد ألتقي فيه ببيتر بعد أن يصبح رجلًا.. تُرى هل سيحدث هذا؟

أفقت من شرودي على صوت عبد الحميد وهو يحدّث علي في يأس:

- يعاقبني الله يا علي.

- إنه ابتلاءٌ يا صديقي.

- وما البلاء والمِحن إلا عقابٌ من الله لعبده الذي ضلّ الطريق.

- والله لولا المِحن لشككْتُ في الطريق.

سكت عبد الحميد غير مقتنع، فأكمل علي:

- أوَ لَم يَبتلِ يوسفَ قبل أن يجعله على خزائن الأرض ويُعيده إلى حضن أبيه؟

- لكنّ اللـه ابتلاه وأرسل له بعض السيّارة يا أخي، أما أنا فلم يرسل لي اللـه شيئًا لينقذني، حتى هاتف ابن عمي الوحيد الذي كان يستطيع مساعدتي هو وابنه قد ضاع مني منذ زمنٍ ولم أجد وسيلةً للحصول عليه.

هنا انتبه بركة أخيرًا الذي كان يمسك هاتفه منذ وطأ بقدمه منزل عبد الحميد، وأجاب في استنكار:

- ابحث عنه على الفيسبوك!

أجاب عبد الحميد في بلاهة:

- وما هذا الفيـ.. فيسبوك يا بركة يا بني؟

بينما كان علي أكثر دراية بالأمر من صديقه، سأل ابنه في نفس الوقت ولكن استبدل بالبلاهةِ اللهفة:

- هل يُمكن البحث عن أشخاص خارج مصر على "الفيس" معلما بحثتَ عن ابنة خالك؟

أجابهما العالِم الصغير:

- بالطبع ممكن، دعونا نجرب، ما اسمه يا عم عبد الحميد؟

- صالح الشوربجي.

- هذا اسم ابن عمك، ماذا عن ابنه؟ أظن سيكون من الأسهل البحث عنه بما أنه شابٌ وطبيبٌ، فبالتأكيد لديه صفحة على الفيسبوك.

- اسمه الحقيقي كريم، لكن منذ مولده ينادونه كيم.

- إذن لدينا عدد كبير من الاحتمالات: إما كريم صالح، أو كريم الشوربجي، أو كيم صالح، أو كيم الشوربجي، أو الشوربجي كريم، أو الشوربجي كيم.

في تفاؤل أجاب عبد الحميد:

- بسيطة، أرني الأشخاص الستة وأنا سأعرف من هو من بينهم.

- لن يكونوا ستةً يا عم عبد الحميد، بل قل ستمائة إذا لم نتطرق لإمكانية إضافة لقب "دكتور" قبل الاحتمالات الستة تلك! وبهذا تصبح اثني عشر احتمالًا بمئات الأشخاص الذين يحملون هذه الأسماء.

- إذن ليس هناك أمل يا بركة يا بني؟

هذه كانت عالية تستفسر من داخل المطبخ الذي بدأت رائحة البصل والثوم تفوح منه، فصدّ علي سؤالها بهجمة مُرتدّة سريعة، لوَأدِ اليأس قبل أن يتفشّى في الأجواء مثلما تفشّت رائحة الطعام:

- لو أن أحدكم همّ بإزالة جبلٍ وهو واثقٌ بالله، لأزاله.

- ونِعم بالله يا أخويا.

- ونِعم بالله.

- استعن باسم الله يا بركة وابدأ البحث.

وبدأ بركة بالفعل يبحث عن كيم كريم صالح الشوربجي.

كانت رحلة بحث شاقة بين مئات الصفحات الشخصية: بعضها "خاص" لا يسمح للأغراب برؤية أي معلومات عليه، وبعضها "عام" كل تفاصيله مَشَاعٌ لكنها لا تدل على هُويّة صاحبها، وعشرات لا يوجد عليها أي نشاط وكأنها مهجورة منذ سنوات، وغيرها استبدل أصحابها بصورِهم صورةً فنان مشهور، أو لاعب كرة قدم، أو حتى زهرة أو حيوان لا يدل على شيء.

ورغم صعوبة الرحلة فإنّ نهايتها كانت مبهرة، صحيح أنه لم يتمّ التوصُّل إلى الطبيب كيم أو كريم، لكن تم التوصُّل إلى الجذر: تم التوصُّل إلى صالح الشوربجي نفسه، والذي كان يملك صفحة شخصية على الفيسبوك، أكثر نظامًا وتنسيقًا ووضوحًا من الشباب الصغير.

لقد كان صالح الشوربجي رجلًا واضحًا، لا يشعر بالحرج من بداياته، وسعيدًا بما وصل إليه؛ فكتب اسمه باللغتين: الأجنبية والعربية، ووضع صورته الشخصية مثل صور البطاقات الرسمية، وكتب في خانة الجنسية: مصري وألماني، وكانت كل منشوراته باللغتين: العربية والألمانية، وكأنه يعلن للجميع حبّه واحترامَه وانتماءَه إلى قُطبَي هُويّته.

حان الوقت ليذهب عبد الحميد لإحضار الفتاتين وكريمة إلى المنزل، ورغم سعادته المفرطة بأنهم أخيرًا توصّلوا إلى صفحة صالح، وأصبح التواصل معه ممكنًا وليس مستحيلًا مثلما كان يحدّث نفسه بالأمس، فإنه كان مُضطرًا إلى الخروج فورًا قبل أن يرسل له رسالته.

كان بركة فَخُورًا بنفسه وكأنه رجل مباحث عرف مكان المتهم وسوف يقبض عليه بعد دقائق، اقترح على عبد الحميد أن يبادر هو بإرسال رسالة إلى صالح لحين عودة عبد الحميد، كما أضاف أن فارق التوقيت قد يجعل الرد يتأخر بعض الشيء، لكنّ عبد الحميد أصرّ على الصغير أن ينتظر، فأجابه بركة بالتزام وتحية الضباط:

- تمام يا فندم، أمر حضرتك نافذ.

في هذه اللحظة بدأ عم نقطة يشرح لي مدى فخره وسعادته بالولد الصغير النبيه الذكي، الذي ساعده بنفسه في نشأته ورعايته.

لم يكن يختلف عم نقطة في هذه اللحظة عن الأب الذي يتباهى بابنه الذي لم يخيّب ظنه قَطُّ.

وبصراحة كان بركة يستحق الفخر.

أما أنا فقد سكّنث وهدّأث من تجعُّدات ملاءتي؛ استعدادًا لاستقبال الصغيرة التي اشتقث لها جدًا.

الفصل العاشر

- مممممح، مممم، اححححم..

- لماذا تتنحنح يا عم عبد الحميد؟ لن تغني! فقط سجّل ما تودّ أن تخبر به ابن عمك.

- أتسخر مني يا ولد يا بركة؟

كان عبد الحميد متوترًا، لا يعرف من أين يبدأ تسجيله لابن عمه الذي لم يتصل به أو يتواصل معه بأيّة صورة خلال السنوات الطويلة الماضية.

ماذا عليه أن يقول الآن؟ مرحبًا ابن عمي، أنا بائس وفقير وابنتي تحتاج إلى مهارة ابنك لتعيش، فإما هذا وإما أفقدها للأبد؟ آه، ويجب أيضًا أن يقول له دبّر لي كل أوراق السفر، وتحمّل المصاريف قبل أن تُجبر ابنك على ضرورة إنقاذ الأقارب!

يبدأ بركة في العد مرة أخرى ساخرًا من عبد الحميد:

- 4، 3، 2، 1.. أكشن.

يظل عبد الحميد صامتًا فيلغي بركة التسجيل للمرة العاشرة، ويقترح ثانيةً أن يكتب ما سيمليه عليه عبد الحميد ليرسل رسالة مكتوبة بدلًا من الرسالة الصوتية.

يرفض عبد الحميد ويصرّ على الرسالة الصوتية:

- الصوت بيوصّل المشاعر يا بني، وأنا جوّايا كتير.

هذه المرة تشجّع عبد الحميد وبدأ في التكلّم فور إشارة بركة:

- إزيّك يا صالح يا أخويا؟

سكت لحظةً وكأنه ينتظر أن يسمع الرد، فأشار له بركة بأصابعه في حركة دائرية يحثّه على الاستمرار.

- أنا عبد الحميد، ابن عمك.

وقبل أن يُكمل، سحب الهاتف من يد بركة وانسحب إلى زاوية غرفته.

- صالح يا أخويا، ربنا رزقني ببنتين، وواحدة منهم حياتها متعلقة في طرف صوابع ابنك ربنا يحميه، أمل عيّانة والدكاترة قالوا لازم تسافر بلاد برّة وأنت مش غريب ياخويا، أنا كل اللي كان معايا صرفته علشان مراتي تِحمَل، لو تقدر تساعدني وتخلّي ابنك يعمل العملية لبنتي يبقى كتّر ألف خيرُه وخيرك، وإذا ماقدرتش مايهمكش، لا يُكلّف الله نفسًا إلا وسعها.

لم ينتبه عبد الحميد إلى أن التسجيل المسموح في رسائل الفيسبوك دقيقة واحدة؛ فاستمر بالكلام وهو لا يدرك أن التسجيل قد توقف. كان صوته قد بدأ في التحشرُج وكأنه حصل على الرد بعدم الموافقة، وبدأت دموعه في الانهمار:

- أنا عارف إنك هتقول كان فين عبد الحميد العمر اللي فات ده كله، وليه مدوّرش عليّا غير لما اتزنق؟ ماعنديش رد يا

أخويا، ومش عارف ليه، بس عارف إيه اللي هيخلّيك ترضى عني وتساعدني زي ما طول عمرك وإحنا صغيرين كنت بتساعدني.

فاكر يا صالح كنت بتحكم عليّا بإيه علشان تدّيني الكورة ألعب بيها مع العيال صحابي في شارعنا؟

ضحك عبد الحميد من بين دموعه وأكمل:

- هغنّيهالك حاضر، بس صوتي ما بقاش حلو زي زمان، بس أهو هغني وذنبك على جنبك. معلش العود مش معايا؛ أصلي بِغته إمبارح علشان أدفع باقي فلوس المستشفى علشان يرضوا يطلّعوا البِتّ.

هغني من غير مزيكا ماشي؟

"يا سيدي أمرك أمرك يا سيدي، ولَجل خاطرك خاطرك يا سيدي.

ما أقدرش أخالفك لإني عارفك، تقدر تحط الحديد في..."

في قلبي يا صالح، لو قولت لأ، المرة دي الحديد هيبقى في قلبي مش في إيدي.

وأخذ عبد الحميد يبكي ويبكي، حتى قرر علي أن يتدخل لتهدئته.

كان يحتضنه بقوة ويُملّس على شعره الأشيب في مشهدٍ لا يخرج إلا من قلب صداقة لم يغيّرها الزمن.

وانتبه كلاهما على صوت إشعارٍ من الهاتف، فنادى علي على ابنه بركة ليرى مَن المُرسِل.

وجاء الصوت من الجانب الآخر من العالم:

- حضّر جواز سفرك أنت والبنت، وابعتلي تاريخ وصولك أول ما تقطع التذكرة.

كيم بيقولّك ابعتله تقرير المستشفى، وهو هيقوم باللازم هو وزمايله ماتشيلش هَمّ. بس وحياة كيم ما هتدخل ألمانيا غير لما تبعتلي بصوتك أغنيتنا اللي يامَا ذلّيتك بيها..

بدأت الرسالة بصوتٍ باردٍ كثلوج ألمانيا، وانتهت بضحكةٍ دافئةٍ كشمس مصر.

استغرب عبد الحميد:

- ما أنا لسّه مَغنّيها؟

فضغط بركة على زر التشغيل لرسالة عبد الحميد والتي وجد أنها توقفت قبل الغناء بكثير، بكثير جدًا، حتى إن ابن عمّه وعلي وبركة وعالية لم يعرف أحدٌ منهم لأي مدى وصل ضيق الحال، وأن تذكرتَي طيرانٍ إلى ألمانيا قد تكونان حُلمًا أبعد من حُلم شفاء أمل.

سهر عبد الحميد الليل بطوله يفكر فيما يُمكن الاستغناء عنه من محتويات منزلهم، يُعدّد القطَع، ويفكر أيها سيكون ذا قيمةٍ أكبر، وأيها لن يُجدي بيعه شيئًا.

في اليوم التالي استيقظتْ أنا وعم نقطة على صوت أقدامٍ

غريبةٍ تدخل غرفتنا.

رفعت الصغيرتان منّا، وكان عبد الحميد يخبر المشتري بسعرينا.

- الأبيض بـ 400 جنيه، والبني بـ 200.

ذهل كلانا، ما الذي يقصده؟ هل سنُباع؟ هل سننفصل؟ هل سنودّع الصغيرتين قبل الاطمئنان على صحة أمل؟

أجاب المشتري وكانت تقف بجانبه فتاة صهباء في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمرها:

- البني جيد.

تذمّرت الفتاة:

- لا يا أبي، الأبيض أجمل بكثير، الغرفة كلها بيضاء، ثم إن الأبيض أحدث وشكله أجمل.

- كلها أسِرّة يا نادين، فلنشترِ الأرخص.

- يا أبي، أرجوك، أشعر بطاقةٍ سلبيّةٍ تخرج من البنّي.

- نادين، لن نتحدث الآن عن علم الطاقة الذي صدّعتِ رأسي به.

تدلّلت الفتاة على أبيها بطريقة تؤكد تمرّسها ومعرفتها الجيدة بنتيجة ما تفعله:

- بابا حبيبي، استمع إليّ، لو كانت ماما هنا لاختارت الأبيض دون شك.

في استسلام أجاب الرجل:

- حاضر يا نادين.

تفحّصني للحظات، ثم التفتَ إلى عبد الحميد يسأله إن كان لديه مَفكٌ يمكنه استخدامه لحل البراغي؛ حتى يتمكن من تفكيك المهد ووضعه في عربته.

ارتاحت قسمات وجه عبد الحميد عندما تأكد من أن البيعة قد تمت، وأسرع للبحث عن علبة الأدوات التي لم يستخدمها منذ زمنٍ سحيقٍ. نبَشَ في المطبخ في أماكن مخفيّة في الأدراج وفوق الثلاجة، إلى أن وجد صندوقًا خشبيًا جار عليه الزمن من طول ما أُهمِلَ، كان قد مكث في دولابٍ تحت الحوض لأجَلٍ طويلٍ لا يعلمه إلا الله.

فتحه عبد الحميد ليُخرج الأداة المطلوبة، وإذا به يجدُ ورقةً مطويةً، مكتوبٌ عليها رقم هاتف ابن خاله الذي كان سيموت كمدًا بحقًا عنه.

ابتسم عبد الحميد في سرّه، وأدرك أن لله مُقدّراتٍ وسُبُلًا غير تلك التي نظن أنها الخلاص الوحيد.

أعطى عبد الحميد المفكّ للرجل الذي وقف ينتظر في صبرٍ منقطعِ النظير، وفي سرعةٍ ومهارةٍ فك بعض المسامير حتى تفسّخت أجزائي إلى عدة قطع متوسطة الحجم، كانت أسهل في الحمل وفي وضعها فوق سيارة كبيرة الحجم، مرتفعة، تتسع لعددٍ كبيرٍ من الأفراد. تم حملي في دقائق دون أن أملك

الوقت لوداع نقطة أو أمل أو إيمان أو أي أحد.

وفي هذه اللحظة أدركت معنى أن تكون مجرد جماد لا يملك من مصيره شيئًا.

جلست الفتاة المرحة بجانب أبيها لينطلقا بي إلى حياةٍ جديدةٍ، وأدارت الفتاة مسجِّل السيارة على أغنية أجنبية، وأخذت تغني بصوتٍ ملائكيٍّ بينما كان أبوها يستمع إليها في إعجابٍ شديدٍ، وهو يُثني على ذوقها في اختيار الأغاني، بينما كنتُ أذوب أنا في معاني الكلمات التي تقول(5):

"سنلتقي مُجدّدًا..

لا أعرف متى، لا أعرف أين

لكني أعرف أننا سنلتقي مُجدّدًا..

ذات يومٍ مشمس.

فاستمِرّ في الابتسام إلى حينها..

كما تفعل دائمًا..

إلى أن تُزيح السماوات المشرقة، السُحبَ الدّكناء بعيدًا".

---

(5) We Will Meet Again – Vera Lynn.

الحكاية الثالثة

الفصل الأول

في لحظةٍ من الزمن تحوّل حالي، وانتقلت إلى بيتٍ آخَر لا كان يشبه القصر الذي عشت فيه في بداية حياتي، ولا كان صغيرًا مثل بيت عبد الحميد وكريمة.

بيت متوسط الحجم، متوسط الرفاهية، ومتوسط السعادة، تسكنه ثلاث فتيات من أعمار مختلفة، وطفل رضيع، وأب، وقطّة ناصعة البياض.

كنت قد قابلت حتى الآن الابنة الكبرى واسمها نادين، والأب الذي أُطلِقَ عليه اسم عزيز، واللذين كانا شديدَي الشبه ببعضهما، وإن كان شعر الفتاة أفتَحُ قليلًا وأكثر نعومةً من أبيها. وكان يعلو وجهَها الأبيضَ نَمشٌ مُختلط بحَبِّ الشباب، نحيلة جدًّا، وطويلة، إحدى عينيها مُعلّقة بها دمعة لا تزول، والثانية شديدة اللمعان، تتراقص أهدابها في محاولةٍ لتلطيف الجو من حولها.

أما عزيز فكان يكسو جسَدَه عضلاتٌ يبدو أنها كانت في وقتٍ مضى قوية، شعره مهذب لكنّ لحيته ليست كذلك؛ وكأنه نسيَ أمرها هي وحدها بعيدًا عن كل ما في مظهره الرائع. وكانت كتفاه مرتفعَتين أكثر من اللازم، متأهبَتين لشيءٍ أو متوتّرتين من شيء، وكثيرًا ما كان يطقطق أصابعه؛ فتطاوعه دائمًا وتُصدر زئيرها دون كلَل أو ملَل.

كان شيءٌ في عزيز يجعلني أهتمُّ بالنظر إليه، وشيءٌ آخر يدعوني لعدم فعل ذلك؛ احترامًا لشيءٍ دفينٍ تحت جلده يحاول أن يختفي عن عيون الجميع.

في اللحظة التي دلفنا فيها إلى المنزل احتشد من حولنا لفيفٌ من البشر: طفلتان من الإناث، ورضيع تحمله امرأة بدينة ترتدي جلبابًا أسود، وتلفُّ شعرها بإحكامٍ تحت قطعة من القماش منقوشٍ عليها أزهار حمراء وصفراء على خلفية خضراء اللون، ويفوح من هذه المرأة مزيجٌ من روائح المنظِّفات والأطعمة، بمجرد شَمِّ رائحتها ستتخبَّط بين ثلاثة مشاعر شديدة التباين: الاضطراب، والجوع، والرغبة في التقيُّؤ.

وعلى الرغم من أني بالطبع لا أستطيع الأكل أو التقيؤ؛ فكان الشعور الوحيد الذي سيتملَّكني كلما رأيت هذه المرأة هو الاضطراب؛ خصوصًا عندما ألاحظ أنها تحمل الرضيع بين ثنايا جسدها الضخم، ملامسًا جلبابها الذي لم تكن تبدِّله نهائيًا، ثم أكون مُضطرًّا لاحتضان شادي في نهاية اليوم! نعم، نسيت التوضيح أن الرضيع اسمه شادي، وهذه المرأة ليست أمَّه بالطبع؛ لأنها أكبر بكثير من عزيز، ولا جدَّته كذلك لأن عزيز كان يناديها بأمّ الخير، ولستُ واثقًا إن كان لديها ابن اسمه خير، أم أن هذه كُنيَة لا علاقة لها بالواقع.

كانت في استقبالنا أيضًا فتاتان: إحداهما في العاشرة من عمرها، والثانية في الخامسة. أستشفُّ من هذا أن تلك العائلة كانت تحرص على فارق خمس سنوات بين كل طفلٍ وآخر.

وبناءً على معرفتي السابقة بسر الرقم خمسة عند المصريين، فأظن أنهم كانوا يحاولون إبعاد العين الشرّيرة عن أسرتهم وأبنائهم، لكن يبدو لي أنهم فشلوا في هذا.

فالطفلة شيرين ذات الشعر الأسود الفاحم، والعيون الزرقاء بلون البحر، والتي كانت الثانية في ترتيب البنات، كانت أشد غُبُوسًا من الباندا الباكية، وتنتحب لأتفه الأسباب؛ فقد بكت اليوم عند لقائنا؛ لمجرد أن أختها الصغرى سالي قد سبقتها وقَبّلت عزيز واحتضنته قبل أن تُقبّله هي.

وكانت شيرين عندما تبكي، يبدو بكاؤها وكأن الدنيا على وشك الفَناء؛ فيضطر الجميع إلى تهدئتها، باستثناء أُمّ الخير التي كانت تنسحب وهي تدمدم في كل مرة دون أن يسمعها أحد: "دلع ماسخ!".

أما سالي، الأصغر سِنًّا ذات الشعر الأسود المجعّد، والابتسامة شديدة السطوع، والأسنان المتفرقة، فكانت لطيفة لدرجة تستطيع أن تصالحك على العالم بسمائها وأرضها. كانت ساحرة بكل ما يُمكن للكلمة أن تحمله من معنى. حتى عندما كانت تسأل السؤال الذي سيتكرر كثيرًا على مسامعي في الأسابيع القادمة، كانت تبتسم برغم ما يحمله السؤال من ألمٍ لا قِبَل لسِنّها الصغير به: "هل ترانا ماما الآن من السماء؟".

الفصل الثاني

حملث أم الخير جزأين من خَمس القطع التي انقسمت، بعد أن التقطث منها نادين أخاها الرضيع؛ لتلاعبه وتهدهده. سألث عزيز في نوعٍ من التحفُّز الذي سأفهم مع الوقت أنه مجرد صلفٍ معروفٍ عن نساء القرى معدومات التعليم: "أين أضع هذا؟".

فأجابها عزيز في تردد: "ضعيه الآن في غرفتي".

فدخلَث ببعضي إلى غرفةٍ قابعةٍ في الجانب الأيمن من الصالة، تلك التي حاولث استقبالنا برحابة رغم الحزن المعلّق في هوائها، حتى بدت لي وكأنها راحة يد مُنفرجة للسلام، في حين كانت الأبواب الواقعة على أطرافها هي أصابعها: ثلاث غرف للنوم، وباب للحمام، وآخر للمطبخ.

ورغم أن فكرة وجودي في منزلٍ لا يوجد به أمٌّ هو شيءٌ غريب بعض الشيء، وغير متوقع؛ لأن وجود رضيع يعني بالضرورة وجود أم، فإنني فهمت أن سارّة قد رحلت وهي تضع مولودها الذَّكَر الذي كانت تتمناه من الدنيا، كما أن أم الخير لا تبدو لي صالحة كمُربّية للأطفال مهلما كانت صوفي. ربما سيتطلب الأمر مني جهدًا إضافيًا لطمأنِة هذا الصغير.

شعرت بالإثارة لكوني سأصبح جارًا لسرير أحد البالغين، فإنّ مشاعر الاشتياق لعَمّ نقطة ولكوكو قد أثّرت فيّ بحيث غطّت على أي شعورٍ آخر؛ فالافتقاد شيءٌ لا يُمكن وصفه، خواءٌ في أعمق أعماقك تصدح فيه الآهات، تتكرر صداها ألفَ

مرةٍ ومرة.

الآن فهمت لماذا تبكي شيرين في كُلّ فرصةٍ تسنح لها؛ فمشاعر الحزن الناتجة عن الفراق ممتدة المفعول، طويلة الأجَل، وأقوى من أي مواساة.

فلا مصائر بأيدينا، ولا أشواق بعد الموت يمكن أن تُوصَل.

كنت مفككًا فعليًا، كما كانت روحي أيضًا مقسومة إلى نصفين: نصف مع حياتي الماضية، ونصف في هذا البيت الذي أودُّ البقاء فيه للأبد، والرحيل منه الآن وفورًا في نفس الوقت!

أسندت أم الخير القطعتين اللتين حملَتهما مني، على حائط الغرفة، فأخذتْ غصبًا عن أحزاني أتأملها. كان هناك سرير كبير وعلى جانبيه منضدتان عاليتان، وُضِعَ على كلٍّ منهما مصباحٌ ليليٌّ رشيقٌ نحاسيُّ اللون، أعاد لي لونه طيفَ ذكرياتي مع كوكو.

أمام السرير كانت هناك تسريحة بمرآةٍ كبيرة، حجب الرؤيَة فيها تلفازٌ متوسط الحجم، أزاح بضخامته مستحضرات التجميل والعطور القليلة على الجانبين في عشوائية مزعجة.

شُباكٌ عريضٌ مغلق لن ينفتح أبدًا، مكسوٌّ بستائر حريرية عاجية اللون، وموكيتٌ رماديٌّ ناعمٌ غطّى الأرضية كلها.

وحيث كان بعض أجزائي لا يزال بالخارج؛ فقد أخذتْ أتفحّص الصالة أيضًا والتي كانت منقسمة إلى جزأين: جزء

احتلّته أريكتان وثيرتان من اللون البُنّي، وُضِعتا في تقاطعٍ عموديٍّ على شكل حرف "L" اللاتيني، وكرسي وحيد أفتَحُ قليلًا في لونه من لون الأرائك، وُضِعَ في الجزء الآخر وكأنه عرشٌ لملكٍ أو بالأحرى لملكةٍ رحلت ولن تعود.

في وسط هذه الجلسة على بُعد بضعة إنشات، وُضِعَت منضدة وطيئة مليئة بقطع المكعّبات والعرائس، تحتها سجّادة صغيرة متعددة الألوان وإن كان يغلب عليها اللون الأصفر، ومُعلّقٌ في مواجهتها تلفاز ضخم غطّى معظم الحائط إلا قليلًا.

في الجانب الآخر من الصالة احتلّت طاولة طعام بسطح زجاجي شفاف ومقاعدها الستة، المنطقة، غير أنها بدت لي وكأنها قطع مهجورة لم تُستخدَم منذ زمنٍ طويل.

لا أعرف لماذا شعرت بهذا الشعور، لكنّ الفرق كان واضحًا لي بين الكنبات الممتلئة بالحياة، ومقاعد السُفرة الكَسُولَة التي لم تتحرك قَطُّ.

أما حوائط المنزل فهي بيضاء، يعلوها بعض الوسخ وآثار لأصابع صغيرة تركت بصماتها عليها، ولا شيء مُعلّق عليها غير ساعة فِضيّة وحيدة تشير إلى الزمن في ضجر.

لا يوجد هنا صور للمسيح، ولا مُنمنمات صغيرة للملائكة حول تمثال لمريم العذراء، كما لم أرَ آياتٍ قرآنية مُعلّقة، ولا سجّادة صلاة مطويّة في أي جانب.

لم يتم حمل باقي أجزائي إلى الغرفة، وكأن أمّ الخير تنتظر

أن يقوم بهذه المهمة أحد غيرها؛ فهي كما يبدو عليها قد سئِمَتْ من تواكُل الكل عليها دون تقديم أيّة مساعدة، أو لعب أي دورٍ يُذكر. سألت عزيز وهي تسند ظهرها بإحدى يديها تعبيرًا عن التعب: "هل ستأكل الآن؟".

لكنّ عزيز لم يلتفت لها، ولم تفلح خُطّتها في إشعاره أنها ليست على ما يُرام. أشار بإصبعه نفيًا وهو ينظر إلى شاشة هاتفه، وطلب منها فنجانًا من القهوة السادة، مؤكدًا ومشدّدًا على كلمة لاسادة".

وقبل أن تنسحب أم الخير مجرجرةً أقدامها التي لم تعُد تتحمّل ثِقَل شحم جسدها، صاحت سالي بصوتها الطفولي: "أنا أريد أن آكل".

فأجابت أم الخير: "حاضر، مَنْ أيضًا يودُّ أن يأكل الآن؟".

غير أن نادين لم تكن مهتمة بالحوار من البداية؛ فتجاهلت السؤال حيث كان الأكل آخر اهتماماتها، في حين سألت شيرين أم الخير في حزنها الذي اعتادت عليه: "ماذا طبختِ اليوم؟".

فأجابت الثانية بعد أن نفثت الهواء من منخارها الكبير، واستغفرت ربها: "مُلوخيّة".

فردّت عليها سالي الرد الذي كانت تتوقعة أم الخير: "مُلوخيّتك ليست مثل ملوخية ماما، شكرًا، لا أريد".

وبينما كانت أمُّ الخير متجهة إلى المطبخ، ظهرت القطة من

العدم، والتي كانت قد اختفت لبعض الوقت. أخذت تتمسّح في قدم المرأة وكأنها فهِمَت أنها تستعد لتجهيز الطعام لمن يريد. ركلَتها بقدمها في المرة الأولى بحنوٍ لتبتعد عنها، غير أن القطة لم تستسلم وأعادت المحاولة مرةً وراء مرة، وكانت أم الخير أكثر إصرارًا وعنادًا منها؛ فكانت هي الأخرى تركلها دون كلل أو ملل، في تصاعُدٍ للقوة وتَحدٍّ مُعلنٍ بعدم الرضوخ لهذا الكائن الوحيد الذي تستطيع أن تمارس عليه سلطتها. "ضعي طعامًا لموتشي يا أُمّ الخير، تبدو جائعة". ملاحظة سريعة من عزيز لم تكن المرأة تحسب حسابها. حاولت أن تتجاهلها وتتظاهر بعدم سماعها.

ثم بدأ شادي في البكاء قبل أن تصل أم الخير إلى المطبخ، فنادت عليها نادين آمرة: "أم الخير، جهّزي رضعة شادي".

هنا انفجرت المرأة: "أوَلَيس في هذا المنزل الطويل العريض سوى أم الخير؟!!".

وددتُ لو استطعتُ الرد عليها، أو ضربها على أُمّ رأسها؛ تلك المرأة التي لا تقدّر حجم سحابة الانكسار التي تظلل سماء هذه الأسرة المسكينة.

الفصل الثالث

لم يكن للتلفاز أهمية تُذكر في أيّ من منازلي السابقة، لكنه هنا لا ينطفئ أبدًا ولا يكفُّ عن إصدارِ ضجيجٍ؛ إما من مؤثرات أفلام الرسوم المتحركة، وإما لأشخاص يتحدثون في موضوعات ليست ذات أهمية لأيّ شخصٍ من الجالسين أمامه.

وحدها أم الخير كانت أحيانًا تقوم بمشاهدة برامج للطبخ عندما يكون الأولاد مشغولين سواء في المنزل أو خارجه، وكانت لا تكفُّ عن الاستهزاء بمقدّم البرنامج الذي لا يعرف كيف يقوم بعمل "دَقّة البامية أو طاجن الرُزّ" مثلما تفعل هي.

في اليوم الأول الذي أتيتُ فيه إلى هذا البيت وبعد أن شرب عزيز فنجان قهوته التي لم تكن سادة مثلما طلب؛ إما لأن أم الخير نسيَتْ أو تناسَتْ، حمَلَ عزيز ما كان لم يزل باقيًا من أجزائي في الخارج ودخل به غرفته ليقوم بتجميعه.

كلما اقترب من الغرفة سمعتُ صوت دقات قلبه يرتفع رويدًا رويدًا، حتى فاق المدى عندما دلف إليها. أظنُّه هو الآخر كان يسمعها؛ فقرر أن يدير التلفاز ليلهيَه صوتُه عن صوت قلبه الحزين.

بدأ عزيز في تجميعي بمهارة فائقة، وكأنه عمل طوال عمره في تركيب وفَكّ الأسِرّة والمُهود. ينظر إلى الشاشة تارةً وإلى المسامير والبراغي تارةً أخرى، لا يحتاج إلى إعطاء كل تركيزه لأمرٍ واحدٍ، أو ربما هذا التشتُّت هو ما كان يصبو إليه

حتى لا يفكر في رحيل زوجته، والتي سأرى طيفها لاحقًا - مثلما كان يراه هو - هائمًا في الغرفة كل ليلة.

كان مقدّم البرنامج الإخباري يذيع خبرًا عن افتتاح مركز تأهيلٍ عالمي على أرض مصر، لأطفال متلازمة دَاوِن. دقَّ قلبي، فربما لو كان تمّ هذا الأمر منذ بضعة شهور لبقيَ بيتر وعائلته هنا، وكنت سأظل طوال عمري مع رفيقتي كوكو. غير أن حالي الآن مثله مثل حال عزيز المسكين، وإن كان الموت هو الذي فرّق بينه وبين حبيبته، في حين فرّقت بيني وبين كوكو الحياة.

رنَّ هاتف عزيز قبل أن يُحكم تثبيت آخر أضلعي؛ فهبّ ليلتقطه في سرعةٍ وخفّةٍ وكأنه كان ينتظر رنينه، وباليد الأخرى أطفأ صوت التلفاز من خلال جهاز التحكم عن بُعد.

سمعتُ صوتَ رجلٍ على الجانب الآخر من الخط يقول: "مرحبًا، هل أتحدث مع السيد عزيز؟".

ازدردَ عزيز ريقه. كان متوترًا رغم يقيني الآن من أنه كان ينتظر هذه المكالمة.

"معك حليم من إدارة شركة طيران الـ... لقد تسلّمنا طلب سيادتك المقدّم بغرض نقلك من وظيفة مُضيف جوي إلى أيّة وظيفة مكتبية أخرى شاغرة، هل يمكنني معرفة السبب؟ مع العلم أنه إن كان السبب صِحيًا فيجب عليك تقديم الأوراق المعتمدة التي تفيد هذا".

أجاب عزيز وكأنه في استجواب: "لا علاقة للأمر بصحتي،

بل بظرفٍ عائليٍّ قهريّ".

كان إصرار الرجل على الجانب الآخر مثيرًا للشك: "نودُّ أن نعرف السبب بوضوح؛ حتى نتمكن من اتخاذ القرار المناسب".

أجاب عزيز وهو غير واثق إن كان هذا السبب سيكون مقنعًا للرجل الذي يتكلم كجهاز ردٍّ آليّ: "تُوفِّيت زوجتي، ويجب عليّ رعاية أبنائي الصغار".

هنا تنحنح الرجل، وقال بصوتٍ أقل ميكانيكية: "البقاء لله".

لكنه سرعان ما استعاد صوته الخالي من المشاعر، وأردف: "في هذه الحالة يجب أن تعلم أن الوظائف الإدارية في شركتنا مهما كانت متقدمة الدرجة، فستمنحك بالطبع راتبًا أقل من الذي تتكسّبه من وظيفتك الحالية".

أومأ عزيز برأسه، قبل أن يعي أن الرجل لن يرى إجابته عبر الأثير؛ فاضطر للرد: "أعرف".

وبعد لحظةٍ من الصمت عمّت الطرفين، تكلم الرجل على الجانب الآخر: "إذن، سيد عزيز، أظن أننا يمكننا نقلك إلى وظيفة أخرى، وسأقوم بإرسال تفاصيل العرض من خلال البريد الإلكتروني الخاص بك".

تنحنح عزيز ليلقيَ قُنبلةً أخرى استغلالًا للموقف وقبل فوات الأوان: "أريد أيضًا أن أقدّم على إجازة غير مدفوعة الأجر لمدة ثلاثة شهور".

لم يُجِبِ الشخص الآخر لبعض الوقت حتى ظن عزيز أنه قد أغلق الخط، غير أنه بعد بضع ثوانٍ مرّت على عزيز دهرًا، أجابه: "أظن أنه لا يوجد مانع فيما يخص هذا الأمر. سآخذ الموافقات المطلوبة وأرسل لك عرض الشركة للوظيفة الجديدة بتاريخ التحاق بعد ثلاثة شهور من اليوم".

أغلق عزيز الاتصال وهو أكثر راحةً بكثيرٍ من ذي قبل. كان قد جلس على حافّة سريره أثناء ردّه على المكالمة. تمدّد شاعرًا ببعض السّكِينة؛ فالآن سيتمكن من البقاء مع أبنائه كليًا لمدة ثلاثة شهور، وبعد هذا سيذهب للعمل مثل أي موظف عادي، ولن يتطلب الأمر غيابه بالأيام عنهم بسبب سفرياته التي كان يقوم بها.

بعد مرور دقيقتين لم يشعر فيهما عزيز أنه كان يتصبّب عرقًا، سحب منديلًا من العلبة القابعة بجانبه ومسح جبينه، وحين لامس طرف المنديل عينيه استسلمتا لذرفِ بضعِ قطراتٍ من الدمع، كان يحبسها عزيز كعصافير صغيرة في قفص مُحكم فُتِحَ الآن على مصراعيه.

الفصل الرابع

أقرُّ أن الليلة الماضية كانت من أصعب الليالي التي مرّت عليّ منذ خُلِقت، بل وحتى من قبل هذا بزمن، حين كنتُ لم أزل جزءًا من شجرة في غاباتٍ كثيفة، يلسعُني الصيف بحرارته ورطوبته، وتتساقط عليّ الأمطار أحيانًا في رقّةٍ وأحيانًا أخرى في غضبٍ وشراسةٍ وجنون.

لم يَنَم شادي أكثر من ساعة متواصلة؛ فكان يستيقظ مراتٍ ومرات، كنت أحاول عدّها في البداية، لكني عندما وصلت للمرة السابعة أو الثامنة شككتُ بسبب نُعاسي في صحة العدد، وقررت الاستسلام لاعتبار مرات صحوِه هذه الليلة هي أكثر المرات التي شهدتها لاستيقاظ طفلٍ صغيرٍ في حياتي.

وكان عزيز بدوره مستيقظًا معه: يحاول تهدئته، إطعامه، تغيير حفّاضته، إعطاءَه دواء المغص، تحسّس جبينَه لربما يكون ساخنًا أو باردًا، هدهدته، وأخيرًا الغناء له بنغماتٍ هادئة. على أن في كل مرة لم يكن نوم شادي يطول لأكثر من بضع دقائق، يقوم بعدها صارخًا مرة أخرى.

وقبل بزوغ الفجر بعدة دقائق نجح عزيز أخيرًا في تهدئة الصغير الذي أظنّه نام بعدما تعب من البكاء وليس بفضل مهارات والده.

كنتُ كلما تململ شادي بداخلي أشعر بشيءٍ مختلفٍ عن حركة الصغار الذين سكنوني من قبل؛ فقد كنت أستطيع بخبرتي أن أحدد ما الذي يحتاجه الطفل قبل أن يبكي، أعرف

إن كان جائعًا، أو مُبتلًا، أو حتى يوجد ألمٌ في بطنه المنتفخ. لكنّ هذا الصغير لم يكن يحتاج أيًّا من هذه الأشياء، وقد تأكدتْ من الأمر بعد فشل محاولات أبيه المرة تلو الأخرى؛ فقد كان شادي يحتاج إلى أن يشمّ رائحةَ أمّه التي يتذكّرها منذ كان داخل رَحِمها، وبقيَتْ الرائحة هي الأكثر قربًا له لمدة ثمانية أشهر وخمسة عشر يومًا، قبل أن يضطر الطبيب لإخراجه من داخلها حين كانت صاحبتها تُسلِم آخر أنفاس روحها إلى بارئها.

استسلم عزيز أيضًا إلى النوم بعدما أصابه الإرهاق من طول السهر. أول مرّة أرى فيها شخصًا بالغًا وهو نائم! لم يكن يختلف كثيرًا عن الرُّضّع؛ فحتى الكبار عندما يسلّمون جفونهم لدنيا الأحلام، يصبحون صغارًا مرحين أو خائفين حسب ما يعيشونه في الخيال. وكان وجه عزيز ينعقد وينفرج، وجسده ينتفض، مُعبّرًا عمّا كان يجول في رأسه.

فتح شادي عينيه بعد ثلاث ساعات تقريبًا، وبدأ في إطلاقِ استغاثاتٍ متقطّعة لم تكن كافية لإيقاظ هذا الرجل الذي لم ينَم طوال الليل. انفتح الباب بهدوءٍ شديد، ودخلت امرأة غير أم الخير تسير على أطراف أصابعها. كان الظلام دامسًا؛ فلم أستطع رؤيتها جيدًا. حمَلَت شادي وعادَت من حيث أتت، لكنّ عزيز شعر بوجودها، فتح عينيه، وسألها: "كَمِ الساعة؟".

فأجابت المرأةُ بصوتٍ خافتٍ، رغم أنه لم يكن هناك شخصٌ نائم: "ابقَ نائمًا يا عزيز، الساعة لا زالت التاسعة".

ردّ عزيز بصوتٍ مُتعَب يخلو من التركيز: "ساعة وسأستيقظ يا سلوى، اعذريني لم أنَم طوال الليل".

أجابته سلوى التي لم أعرف حتى الآن مَنْ هي: "لا تشغل بالك يا حبيبي، سأهتمُ بالأولاد حتى تكتفي من النوم".

لم أعِ جيدًا لماذا تناديه هذه المرأة بحبيبي، لكني كنتُ مرتاحًا لوجودها ولصوتها الدافئ، ولشذى عطرها الذي يشبه رائحة عطر كريمة. تُرى كيف حال أمل الآن؟

كنت للمرّة الأولى أدرك أن للروائح مقدرةً عظيمةً على استحضار الذكريات، وأن الأمس رغم قربه يبدو بعيدًا، وأن الخوف على مَنْ سكن روحك أشد وطأةً مِن خوف ذاتك على ذاتك، وأن شبح الموت يأتي في كل مرة لابسًا ثيابًا مختلفةً وقناعًا مختلفًا، وأنني لا أعرف كيف سيكون فَنَائي.

الفصل الخامس

عادتِ المرأةُ ذاتها بعد شوَيعاتٍ تحمل في يدها كوبًا من الشاى، يتصاعد منه دخانٌ يُعلن عن سخونةِ ما به، وضعته على الطاولة بجانب سرير عزيز، وبدأت في تمرير يديها صعودًا وهبوطًا على ذراعه، وهي تهمس: "زيزو حبيبي، قُم، أحضرت لك شايًا". فتح عزيز عينيه كطفلٍ توقظه أمه، مبتسمًا رغم مرارة ما بقلبه، محاولًا أن لا يُخذل حنانها ومجهودها في جعله بحالٍ أفضل، غير أن هذه المرأة لم تكن أمّه، بل أخته الأكبر منه سِنًّا: سلوى.

عندما أظهر عزيز استعداده للنهوض، وضعت سلوى وسادة إضافية وراءه حتى يُسند ظهره عليها، ثم أضاءت المصباح الجانبي الذي شعَّ بضوءٍ أصفر جعلني أرى وجهها وكأنه شمس مشرقة. ورغم آثار السِّنّ التي خدشت سطح بشرتها بعلاماتٍ لا تزول، فإنّ جسدها كان مشدودًا كأوتار عود عبد الحميد، ترتدي ملابس سوداء بالكامل، وقطعة حُليّ وحيدة تتدلّى من عنقها تشبه الفراشات، لكنها ذهبية لا ألوان فيها.

سألها عزيز: "متى أتيتِ من الشرقية يا سلوى، وكم الساعة الآن؟".

كان عزيز ينظر في هاتفه وهو يسألها، فأدرك قبل أن تجيبه أن الوقت قد تخطّى الواحدة ظهرًا.

قالت سلوى: "أخذتُ سيارة الأجرة الأولى التي خرجت من موقف السيارات بعد صلاة الفجر مباشرة".

هزّ عزيز رأسه يمينًا ويسارًا متعجبًا لأمر أخته، ومبتسمًا وهو يحدّثها: "منذ صغرِك وأنت تعشقين الاستيقاظ مبكرًا، حتى في يوم إجازتك. عجيبٌ أمرك يا أختاه!".

أردفت سلوى وهي تضحك من أعماق قلبها: "لهذا السبب كلما حاولتم إقناعي بترك العمل، أرفض وأرفض ثم أرفض. ماذا تظنوني فاعلة إذا سوّيتُ معاشي مبكرًا؟ ليس عندي سَنَد ولا ولد حتى أستيقظ من أجله؛ ولهذا أصبحث وظيفتي وزملائي منذ رحيلك إلى القاهرة منذ أيام الجامعة، هم أهلي وعزوتي وأبنائي. تصور أن بعض أبناء الموظفات الجديدات يطلقون عليّ لقب تيتة سلوى".

وأخذت تضحك على نكتة لم تُلقها، وعزيز يجاريها وكأن ما قالته مضحكٌ.

مدّت سلوى يدها بكوب الشاى فناولته لعزيز، رشف منه رشفةً محاولًا أن يفيق من نُعاسٍ لم يُسمن ولم يُغنِ. لا يزال مُتعبًا وكأنه لم ينَم؛ فقد كان لثقل الحزن على صدره، وحمل المسئولية على ظهره، أثرٌ لن يزول قريبًا.

دخلت نادين إلى الغرفة ومعها أختُها الصغرى سالي. قفزتا فوق السرير بجانب والدهما، بينما ظهرت أمُّ الخيرِ على عتبة الباب حاملةً شادي، تتساءل إن كانت تضعه في مهده لأنه نام، أم تتركه في الخارج؟ كان صوتها مزعجًا وعاليًا؛ فاستيقظ شادي باكيًا. تأفّفت أم الخير قائلة: "لا أصدق كيف يستيقظ هذا الولد من أقل همسة!".

وددتُ لو أستطيع تقريع هذه المرأة وإخبارها ما يستحي الجميع قوله لها، كنت سأعترف لها بكل شجاعة أن: يا أمَّ الخير، صوتكِ كصوت الرعد في منتصف ليلة ساكنة. لكنّي للأسف لم أستطع، والأدهَى أنني لن أستطيع الحديث مع أيِّ أحدٍ في هذا المنزل؛ فلا الناس تسمعني، ولا الأشياء هنا مثلي.

حملَتْ سلوى الطفل، وسرعان ما سكت واستكان! وبينما كانت سالي تتقافز على السرير، ونادين تضع رأسها على كتف عزيز في دلالٍ منقطع النظير، تلفَّت الأب حوله مستفسرًا عن سبب اختفاء شيرين، فأجابت الأخت الكبرى في ضجر: "دَعْك منها يا بابا، فقد اختلقت مشكلةً لتذرفَ بحرًا من الدموع وتنتحب كعادتها".

سأل عزيز في قلقٍ وكأنه لم ولن يعتاد هذا الأمر: "ما الذي يُبكيها، وأين هي الآن؟".

فقامت سلوى من فوق طرف السرير الذي كان يبدو لي كمَزكَب على وشك الانقلاب؛ بسبب ثقل الحِمل على جانبٍ دون الآخر، وقالت لعزيز: "لا تخَفْ، سأذهب إليها لأرى ما بها، اشرب أنت الشاي حتى أنتهي من إعداد الغداء. جهزتُ لك اليوم بطًّا وحمامًا ورقائقَ باللحم المفروم".

لمعت عينا عزيز لسماع ما تحتويه وليمة اليوم؛ فلم تكن شيرين وحدها التي ترى أن أم الخير لا تعرف عن أسرار الطبيخ الجيد شيئًا.

وعندما رأت سالي علامات السعادة على وجه أبيها، قفزت قفزةً أخيرةً في الهواء، واستقرّت جالسةً في خفّةٍ وسرعة، جعلتني أراها خليطًا مركبًا من القِردَة الصغيرة والعصافير، ثم وجّهت طلبها لأبيها دون خجل أو تردد: "متى سأعود إلى تدريبات رقص الباليه يا بابا؟".

لا يعرف عزيز عن هذه الأمور شيئًا. جفل ونظر في إحراجٍ إلى نادين؛ ربما تستطيع إنقاذه من هذا المأزق ببعض المعلومات التي قد تملك منها القليل. رفعت نادين كتفيها لأعلى دليلًا على جهلها هي أيضًا، فأسرعت سالي بحلٍّ لم يخطر على بال أحد: "يمكنك استخراج رقم هاتف المدربة من جهاز ماما، فقد سجّلتها ماما باسم سوزي باليه".

ضحك عزيز لهذا الاسم، وظل يكرره وراء سالي مرات ومرات: "هل واثقة أن اسمها سوزي باليه؟".

أُعجب عزيز بهذا الحل، لكنه لم يكن يعرف أنه بمجرد لمس هاتف زوجته الراحلة، وإن كان فارغًا من الشحن ومغلقًا، سيضرب جسده بقوة كهربائية اتجهت إلى قلبه مباشرة. تنفّس بقوةٍ حتى يستعيد رباطة جأشه، وأوصل الهاتف بالشاحن.

انتظر لبضع دقائق قبل أن يتشجّع ويضغط زِرّ التشغيل، وعندما أضاءت الشاشة كان أول ما رآه عزيز صورة لعائلة كانت يومًا ما سعيدة ومطمئنة.

الفصل السادس

بعد مرور نهار طويل مليء بالخطوات دخولًا وخروجًا من غرفتي، حلّ الليل ووجدتُ العمّة سلوى تحمل شادي وهو نائم وتضعه بداخلي. كان نظيفًا مُعطّرًا بعطرٍ خفيفٍ بعد أن حمّمته وغيّرت ملابسه كلها، كما كان يبدو لي شبعانَ ومعدته هادئة لا تقرقر جوعًا ولا تتلوّى ألمًا. تمنيت له ولنفسي ليلة هادئة.

دخل عزيز هامسًا يسأل سلوى أين تريد أن تنام، أشارت له على السرير في الغرفة ذاتها وحركت شفاهها دون أن تُصدر صوتًا مشكّلة كلمة "هنا"، فسألها وهو يعقد حاجبيه اعتراضًا وامتنانًا في الآن ذاته، حيث فهم أنها تودّ أن تأخذ حمل رعاية شادي هذه الليلة عن عاتقه، لكنه وجد ضرورة للمقاومة الرخوة: "وأين أنام أنا؟".

أدارت جسده ودفعته إلى الخارج، إشارةً منها على عدم تقبّل الجدال في هذا الأمر.

وخرج كلاهما لبعض الوقت، إلى أن عادت سلوى لاحقًا بعد ما يقارب الساعة وهي تحتضن شيرين بذراعها وتسحبها معها إلى السرير. أحكمتِ الغطاء على جسديهما حتى ما عاد ممكنًا أن تفرّق أي أجزاء الكتلة التي صنعها جسداهما تخصُّ هذه، وأيها تخصُّ الأخرى.

يبدو لي أن هذه الليلة لن ينام شادي وحده قرير العين، وإنما شيرين المسكينة أيضًا سترتاح لليلة في حضنٍ دافئٍ

يحتويها.

عندما أتى الصباح، وقبل حتى أن يبدأ سرب البلابل في التغريد، استيقظت سلوى مع زحف خيوط الفجر الأولى من تحت عقب باب غرفتنا، تسلّلت في هدوءٍ إلى الخارج لكنها لم تُحكم إغلاق الباب؛ تأهبًا لاحتمالية استيقاظ شادي قريبًا، والذي نام هادئًا الليلة بطولها.

ولم يَخِب ظنُّها، فبعد دقائق قليلة بدأ الصغير في البكاء؛ فأسرعت سلوى إليه في لهفةٍ بقنّينة الرضاعة حتى تُسكته قبل أن يوقظ أخته الغافية على مقربة منه.

لكنّ الفتاة استيقظت بالرغم من محاولات العمّة، أخذت تدعك عينيها لتمسح ما علق فيهما من آثار النوم، وعندما رأت عمتها مضطجعة على السرير في موقع أمها الذي كان، انتفضت وأخذت تلثم خدّها وتبكي اشتياقًا لأمّها، ورغبةً في تفريغ ألمٍ لم يخرج برغم كل البكاء الذي بكته طوال الفترة السابقة.

كانت سلوى تشعر بحزن شيرين تحديدًا؛ لأنها هي الأخرى عندما ماتت أمها كانت في مثل ذات العمر تقريبًا، أكبر أو أصغر بقليل ربما، لكنها كانت على كل حال في هذه السّنّ التي تكون فيها الفتيات غير قادرات على تحديد مشاعرهن، ولا معرفة إن كُنّ أطفالًا أم آنساتٍ يُعامَلن معاملة الكبار.

كانت شيرين وعمتُها سلوى على خلافٍ دائم مع أُمّيهما: تتشاجران، تنفثان غضبهما، وأحيانًا تصفقان الأبواب خلفهما

اعتراضًا وعصيانًا.

ما كان يؤلم شيرين أكثر من أي شخص في المنزل أنها كانت تظن أن جدالها الأخير مع أمها هو الذي جعلها تنزف، تحكي لعمتها الآن وهي ترتجف: "كانت ماما تنادي وهي غاضبة، بطنها منتفخ أمامها، تسألني عن سبب استدعاء المدرسة لها، يومها كنت قد تحدّيت مُعلمتي وقلتُ لها إنني أثق في إجابتي، لم أكن واثقة بل كنت أحب التحدي".

كانت شيرين تبكي وتشهق بين كُلّ جملةٍ وأخرى: "كنت أودُّ أن أحرج معلمتي أمام باقي التلاميذ كما اعتادت هي دائمًا إحراجي. قالت لي إن إجابتي خطأ، أجبتُها في صفاقةٍ إن كانت إجابتي خطأً فلأنني لا أفهم منها شيئًا. طردتني من الصف واتصل الناظر بأمي يطلب حضورها. كنت أعرف أن أمي لن تحضر؛ فهي لا تستطيع قيادة السيارة وهي في شهرها الأخير من الحمل، وكان بابا مسافرًا؛ فاعتذرت من الناظر وأخبرته أنها ستذهب له غدًا أو بعد غد، ردّ عليها بأنه سيرسلني الآن إلى المدرسة، وأنه لن يسمح لي بالعودة إلا في وجودها. انتظرتني حتى عدتُ. عدتُ وحدي مبكرًا من دون إخوتي. كانت غاضبة بشدة، غاضبة لدرجة أن سخونة رأسها أذابت جفونها، وسال جزء منها حتى غطّى عينيها، ولم أعُد قادرة على رؤيتهما. بدأتْ تصرخ فيّ بغضب، وكلما صرختْ كنتُ ألحظ أن بطنها تنزلق لأسفل أكثر وأكثر، إلى أن صرختْ تلك الصرخة المختلفة عن كل سابقاتها، وانفجر من بين فخذيها ماءٌ مُدمّم، ماءٌ كثيرٌ جدًا، ثم نهرٌ من الدماء

وكأنها ذُبِحت. ركضتُ إلى خارج البيت أسأل الجيران المساعدة. أصبتُ بهستيريا، وظللتُ أصرخ وكأنني صدًى لصرخاتها، حتى جاءت إحدى الجارات وأخذتها إلى المشفَى سريعًا، أسرع بكثير مما كنت أتخيّل، ولم أرَها منذ تلك اللحظة قَطُّ".

عند هذه اللحظة لم تستطع شيرين تمالُك أنفاسها، وأخذت تشهق وتزفر وكأن كل نَفَس هو الأخير الذي تحاول الإمساك به لتبقى في قيد الحياة، وإن كانت تدمدم من بين شهقاتها: "أودُّ لو أموت، أودُّ لو أذهب لماما حتى أعتذر منها".

ظهر عزيز الذي لم يكن يعرف شيئًا عن هذا الأمر، لا هو ولا سلوى ولا أي شخص في المنزل.

وكان جليًا لعيون الجميع أن شيرين ليست فقط طفلة حزينة، ولكنها طفلة مصدومة تشعر بتأنيب الضمير، وأن الكلام الارتجالي معها الآن لن يفيد.

بعد أن استطاعت سلوى تهدئة شيرين مؤقتًا، ودَعَتها للخروج من الغرفة لتناول الفطور مع إخوتها، استدعت عزيز إلى الغرفة قبل عودتها إلى بلدتها، وأكّدت عليه ضرورة عرض شيرين على طبيبٍ مختصٍّ بسيكولوجية الأطفال؛ فما مرّت به شيرين سيظل عالقًا في عقلها كعُقدةِ ذنبٍ لن تُحلّ بالحديث العادي، هذه الطفلة تحتاج إلى التحرُّر من هذا الحدَث حتى تستطيع أن تكمل حياتها مثل أي طفل طبيعي.

سأل عزيز سلوى في ترددٍ كطفلٍ على وشك وداع أمه:

"متى ستعودين؟".

ودون أن تمنحه إجابة واضحة قالت: "قريبًا".

كان يتمنى أن يقول أكثر، وأظن أن سلوى أيضًا كان لديها أكثر لتقوله، لكنها اكتفت بتلك الإجابة المبهمة.

وفي لحظةٍ تحوّلت نظرتي لشيرين من كونها الشخص الوحيد المزعج في هذا المنزل - بعد طبعًا أم الخير، والقطة البيضاء بطيئة الحركة - إلى أكثر شخص وددتُ لو أستطيع ضمّه إلى أحضاني، لكني للأسف لا أستطيع.

الفصل السابع

مرّت بضعة أسابيع حاول فيها عزيز بشتّى الطرق ترميم ما يستطيع إصلاحه في نفوس بناته المنكسرة، فعلى الرغم من أن أيّ شخصٍ سينظر إلى هذا البيت - من الخارج - سيتوقع أن أصعب حِمل على عاتق عزيز هو الرضيع الذي لم يَرَ أمّه؛ فالرُّضّع في نظر معظم الناس هم أكثر الكائنات تطلُّبًا واحتياجًا، لكنّ الوضع الحقيقي لم يكن هكذا في منزل عزيز. صحيح أن شادي يبتلع معظم الوقت بين استيقاظه ومحاولات وضعه في النوم، فإنّ الفتيات كُنّ أكثر احتياجًا لأبيهن، كل واحدةٍ بطلباتها الخاصة.

فمثلًا وجد الأب أن إعادة سالي إلى تدريبات الباليه، ورجوعها إلى روتين يومها مثلما كان قبل وفاة سارّة، سيكون من شأنه أن يجعلها أكثر نشاطًا وراحةً في الآن ذاته.

أما شيرين فقد تأكد لعزيز أنها تحتاج إلى مُعالِج نفسي؛ ليساعدها على تخطّي مشاعر صدمتها وإحساس الذنب بأنها هي السبب في موت أمها؛ فقد صوّر لها عقلها الصغير أنها لو لم تُسِئ التصرف مع معلمتها، فلربما كانت أمها لم تزل حيّةً اليوم.

عندما عُرِضَت شيرين على طبيبٍ نفسيٍّ مختصٍ في مثل هذه الأنواع من "التروما"، أقرّ الأخير أن الفتاة تحتاج إلى مساعدة ودعم إضافي من والدها تحديدًا؛ لأنه الوحيد في المنزل الذي يعرف ملابسات هذا الحادث، في حين شدّد على

ضرورة إخفاء الأمر تمامًا عن باقي الأخوات؛ حتي لا تواجه شيرين أي تعنيف أو لومٍ من أخواتها في لحظات الغضب الطبيعية بين الأشقاء.

أخبر عزيز أختَه وهو يحادثُها في الهاتف عندما عاد من عند الطبيب أول مرة: "يقول الطبيب إن دوري الآن أهم من دوره هو شخصيًا".

ثم أردف وهو على وشك البكاء: "أنا متعاطف تمامًا مع صغيرتي، لكني ومع الأسف لا أستطيع محو المشهد كيفما قصّته علينا شيرين، من عقلي".

في هذه اللحظة شعرتْ أن عزيز نفسه قد يحتاج إلى مساعدة طبية لتخطّي الأمر، غير أن سلوى كانت خيرَ مُعينٍ له؛ تحدّثه طوال الوقت لتمتصّ مشاعره الحزينة، كانت أكثر تقبّلًا لاحتوائه من أرض قاحلة في يوم ممطر، مرددةً كلمة: "عمرها"، ومؤكّدة أن الإنسان لا يعيش يومًا أقل أو أكثر من "المكتوب".

كان صوت سلوى عبر الأثير أكثر دفئًا من صوتها في الحقيقة، وكأنها تعوّض عدم وجود يديها الحانيتين، عن طريق كلماتها كي تطبطب على محدّثها.

وكانت هناك دائمًا جملة مبتورة من اتصالهما أشعر برغبة عزيز في قولِها، وأشعر بصوت سلوى ترجوه أن لا ينطقها!

لكنه اليوم أخيرًا تشجّع وقالها: "سلوى، أرجوكِ، أنا والبنات نحتاج إليكِ، قدّمي استقالتكِ وانتقلي للعيش معنا". فقد كان

هذا اليوم من تلك الأيام شديدة الوطأة التي تمرُّ على عزيز وبناته.

أجابته سلوى وهي غير واثقة من أنها تعني ما تقول: "حاضر يا حبيبي، سأفعل كل ما في وسعي لآتي إليكم".

لم يكن يعني ردها أنها ستأتي وتبقى إلى الأبد؛ فقد فهمت - مثلما لم يكن يرغب عزيز في تصديق - أنها تعني زيارتهم في القريب، مجرد زيارة سترحل بعدها إلى بيتها، وتعود إلى عملها ودنيتها؛ فسلوى تتعامل مع وظيفتها الحكومية وكأنها نهرٌ وهي السمكة التي لا تستطيع العيش خارجه.

كانت سلوى تودُّ أن تطرح عليه فكرةً أخرى، لكنّ صوته في هذه المكالمة لم يكُن مشجعًا قَطُّ، فأطلقت جملة مُعلّقة: "عندما تكون في مزاج أفضل سوف نتحدث ثانية، أظن أنني سأجد حلولًا أخرى جيدة لتسهيل حياتك، وسوف تطلب مني حينها عدم زيارتك من الأساس". وأطلقت ضحكة متوترة في حين ابتسم عزيز ابتسامةً مبتورة، فهو يعرف أن أخته امرأة تستطيع أن تُليّن الحديد إن أرادت، فما بالك بشيءٍ بسيطٍ كحياةِ رجلٍ بائس وأربعةِ أطفالٍ لا حولَ لهم ولا قوة؟

دقّت نادين على باب الغرفة تستأذن والدها في الدخول، وكان قلب عزيز يهدأ في وجود هذه الفتاة تحديدًا؛ فعلى الرغم من أنها تشبهه في الشكل أكثر من كل أبنائه، فإنها أخذت من صفات وروح أمها أكثر مما تستطيع النحلة استنشاقه من رحيق أزهار اللافندر والآلوسن والبيتونيا،

حتى أصبحت نسخةً مُعدّلةً وراثيًا تجمع صفاته مع صفات سارّة.

كان متكئًا على سريره فأشار لها أن تدخل، وفتح ذراعيه استقبالًا لضمّها. احتضنته بقوة وأخذت تداعبه وتشاكسه بكلامٍ غَزَلٍ وحُبّ: "لن أقبل بزوجٍ أقل منك وسامةً يا عزيز".

أمسك شَحمةَ أُذنها مثلما يفعل الشخص عندما يكون على وشك توبيخ طفلٍ، لكنه أمسكها برقة متناهية محذرًا بسخرية: "اسمي بابا، وليس عزيز".

ضحكت نادين من أعماق قلبها، وكانت ضحكاتها أقوى من أمواج الحزن التي ملأت روحها؛ فهذه الفتاة عقلانية، تفهم جيدًا أن الحياة يجب أن تستمر حتى بعد موت أقرب الأحباء، فهي وأبوها وإخوتها أحياء، ولا يموت أحدٌ بموت غيره، بل ينتظر الجميع أحايين نهايتهم، كُلٌّ على حِدَة.

سألها أبوها في حيرة: "أتعجّب كيف تمنحينني كل هذا الدفء، رغم أني أعرف أنكِ كنتِ الأقرب إليها؟".

رفعت نادين جانبًا واحدًا من فمها في محاولةٍ لرسم نصفِ ابتسامة: "لأنني أعرف أنني سأقابلها ثانية". ثم أخذت تغني بالإنجليزية، الأغنية ذاتها التي سمعتها معهم في السيارة عندما أخذوني من عند عبد الحميد وكريمة:

"سنلتقي مجددًا..

لا أعرف متى، لا أعرف أين

لكني أعرف أننا سنلتقي مجددًا..

ذات يومٍ مشمس.

فاستمرّ في الابتسام إلى حينها..

كما تفعل دائمًا..

إلى أن تُزيح السماوات المشرقة، السُحبَ الدكناء بعيدًا".

ظللتُ أكرّر كلمات الأغنية التي كانت تغنيها نادين طوال الليل، إلى أن غفوتُ وحلمتُ بحديقةٍ غنّاء مكسوّةً بأزهار الخزامى، ورأيتُ نفسي وكوكو ونقطة، نجلس على ربوة عالية نتسامر ونغني معًا: "سنلتقي مجددًا".

الفصل الثامن

ومثلما وعدت سلوى قد أوفت، لكن مثلما هو متوقَّع أتت للزيارة وليس للبقاء.

اليوم لم ترتدِ السواد بالكامل مثلما كانت هيئتها في المرة السابقة، وإنما ارتدت قميصًا أسود مزركشًا بقليل من الخطوط الملونة في سرياليّة لم تُعطِ انطباعًا لأي شخص إلا أنها خطوط تتمرد على سواد الخلفية.

كانت سلوى أيضًا تحاول أن ترسل رسالةً من خلال قميصها لعزيز والبنات: وهي أن مرحلة الحزن والوقوف على قبر سارّة الراحلة يجب أن تمرّ، وأن هناك ألوانًا دخولها في المشهد شيءٌ حتميٌ.

لم يلتقط عزيز رسالة القميص، وربما لم يلحظ أحدٌ سوى سالي الصغيرة التي ألمحت بعفوية إلى أن ألوان القميص ليست جيدة بما يكفي.

تحرّجت سلوى لكلمات سالي، لكنها بعد لحظة أقرّت بأن رأي الفتاة صحيح: "عندك حق يا سالي، ليس اختيارًا جيدًا، ولكني أودُ أن أتحول قليلًا وببطء من الأسود إلى الألوان؛ لهذا السبب اخترت هذا القميص الذي يُمكن اعتباره أسود وملوّنًا في الوقت ذاته".

تململت سالي في جلستها على الأرض في غير ارتياح، غير مقتنعة بما قالته عمّتها التي دخلت إلى الغرفة فاردةً جسدَها

على السرير، بعد أن أدارت مُكيِّف الهواء لتستريح من حرارة الجو المرتفعة، التي أصابتها ببعض الدُّوَار وهي في طريقها من بلدتها إلى القاهرة.

شعرتْ أن سلوى تحاول لفتَ الانتباه إلى إرهاقها بتضخيم مشاعرها الساخطة من سوء الطريق غير المُعبّد، وهمجيّة سائقي الأجرة، والحرارة الخانقة، وبالطبع سِنّها التي أصبحت لا تتحمّل هذه المشاوير الطويلة.

أجابتها نادين: "إذن ابقَي معنا يا عمتي ولا ترحلي مرةً أخرى".

غير أن رد سلوى كان مُحبِطًا: "على عيني يا صغيرتي، لكني لا أستطيع التخلّي عن حياتي".

سكتت نادين وسكت الجميع؛ فلم يكن هذا هو الرد المنتظر، أو لأكُن أكثر وضوحًا، لم يكن الرفض القاطع هو المعتاد، والمراوغة كانت أسلوب سلوى المتبّع منذ طرحت هذه الفكرة أول مرة، لكنها اليوم تعلن أنه لن يحدث ما يرمي إليه الجميع.

ارتمت شيرين في حضن سلوى، وكيف لا وهي الوحيدة غير أبيها التي تعرف سرّها. تحتاج الفتاة إلى مَن يشعر بجرحها، دون أن يُثقل عليها بلوم أو تقريع.

كانت تحتاج فقط إلى حضنٍ صامتٍ من شخصٍ يعرف بالأمر، وليس من أي شخص، ولا حتى من أبيها، بل امرأة تعرف الأمر وتتقبّل ألمها وتحتضنها هو كل ما تحتاج إليه شيرين الآن، وسلوى كانت الخيار الأفضل لها.

ظلت العمة تُقبّل هذه وتداعب تلك، وهي لا تزال تحاول إظهار إرهاقها رغم مرور ساعة على وصولها. وكان شادي في وسط هذا الجمع يتلقّى بعض الكلمات والتدليل، وكثيرًا من الأصوات المضحكة التي تخرج من بين شفاه الصغيرات، لا معنى لها وإنما هي مجرد تكرار لحرف أو حرفين مثل "غغغغغغ" أو "داداداداا".

عندما ظهر عزيز أخيرًا في الغرفة طلبت سلوى دون تردد، بعد أن دبّ فيها النشاط المَشوب ببعض التظاهر بعدم القدرة على النهوض، من نادين أن تأخذ إخوتها إلى الخارج قليلًا؛ لأنها تحتاج للانفراد بأبيهم لبعض الوقت.

تذمّرت شيرين وهي تُحكم ضمّتها لعمتها: "أودُّ أن أبقى معكِ".

لكنّ سلوى للمرّة الأولى بدت حازمةً جدًّا؛ فقد أصرّت على خروجهم جميعًا بلا استثناء بمَن فيهم شادي: "سالي، استدعي أم الخير لتأخذ شادي للخارج".

خرجت سالي مسرعةً كعادتها في الحركة تنادي على أم الخير، والتي ظهرت بنفس هيئتها التي لا تتغير أبدًا، في انتظار الأوامر التي ستتأفّف بعدها مهما كانت كبيرة أو صغيرة، فهي امرأة تشحن طاقتها بالتذمُّر: "خذي شادي إلى الخارج يا أم الخير؛ أودُّ الحديث مع السيد عزيز لبعض الوقت على انفراد".

نفثت أم الخير الهواء من منخارها كثورٍ هائج، لكنها تذكّرت

أن هذه المرأة تُغدق عليها بالخير الوفير؛ فابتلعت غضبتها، واستبدلت بها جملةً أخرى: "أوامر حضرتك، لكن أرجوكِ أن تتحدثي مع السيد عزيز عن ضرورة تربية البنات جيدًا بعيدًا عن هذا الدلع الماسخ".

كانت كلمة "دلع ماسخ" هي لازمة معلّقة في لسان هذه المرأة، وكان من حُسن حظ أمّ الخير أن سلوى ستستغلُّ هذه الجملة التي قذفتها الخادمة في مهمتها التي أتت من أجلها، وإلا كانت وبّخَت أم الخير بجملتها التي تكررها دائمًا: "بناتنا متربيين أحسن تربية".

عندما خرج كل من كانوا في الغرفة، أشارت سلوى إلى أخيها بالجلوس بجانبها، بأن ربّتت على مرتبة السرير ربتاتٍ قويةً براحةِ يدها.

فهم عزيز المطلوب منه وجلس دون تردد، وبدأت سلوى في التقاط طرف الحديث الذي جاءت اليوم خِصّيصًا من أجله: "اسمع يا عزيز، صحتي لم تعُد تتحمل الذَّهَاب والإياب بهذا الشكل، وأنت شابٌّ والعمر أمامك، وأبناؤك يحتاجون لمن يرعاهم. أنا أعرف جيدًا كم كنت تحب سارة، لكنّ السابقين قد قالوا إن الحي أبقى من الميت، وأنا أرى أن زواجك هو الحل".

لم يكن يتوقع عزيز قطُّ، ولا خطر بباله، التفكير في مثل هذا الأمر. كيف تأتي امرأةٌ أخرى لتحلّ محل سارة بهذه البساطة.

أجابها في خجل؛ فأخته رغم تقدُّمها في العمر لا زالت آنسة ولم يسبق لها الزواج: "لن أستطيع لمس امرأة غير سارة ما حييت".

أجابته إجابة العالِم، في حين كانت هي أجهل الجاهلين بالأمر: "هذه مسألة هيِّنة وستعتاد الأمر سريعًا؛ خصوصًا إن زوجتك القادمة امرأة جميلة".

ثم أردفت: "انتظر، سأريك صورتها وبعدها تستطيع أن تحكم".

أمسكت بهاتفها تبحث عن الصورة، في حين احتقن وجه عزيز الذي شعر وكأنه فأر وقع في مصيدة؛ فسلوى لا تطرح عليه فكرة، بل بدأت بالفعل في اتخاذِ خطواتٍ للتنفيذ. رفعت سلوى الهاتف في وجهه وهي تبتسم وتقول: "انظر كيف هي جميلة".

لكنَّ عزيز أزاح يدها بقوةٍ حتى كاد الهاتف يفلت منها، فنظرت له غير مُصدقةٍ ردَّةَ فعله. اعتذر منها متحرِّجًا من ضرب يدها، لكنه أضاف لتخفيف وطأة فِعلته: "سلوى، لن أستطيع، وإن استطعتُ فلن تقبل البنات".

مصمصت سلوى شفتيها، ثم لوَّحتهما وهي تتعجب: "منذ متى وللصغار رأيٌ في مثل هذه الأمور؟ إذن كانت مُحقَّة أُمّ الخير عندما قالت إنك تُدلِّل بناتك بطريقة خطأ".

لكنه استعار جملتها في غضبٍ واضحٍ هذه المرة: "أنا أربِّي بناتي أفضل تربية". ثم أكمل بنفس الحدَّة: "وموضوع الزواج

هذا مرفوض تمامًا، شكلًا وموضوعًا".

كان النّقاش قد تحوّل إلى شجار، فانتفضت سلوى التي دبّ فيها النشاط فجأة، دسّت قدمها في الحذاء الذي كان موضوعًا تحت السرير، والتقطت حقيبتها استعدادًا للرحيل، وقالت لعزيز: "إنها حياتك، أدِرها كما تريد". وذهبت وسط دهشة البنات اللاتي أتين على وَقْع ارتفاع صوت حديثهما.

الفصل التاسع

استطاعت نادين أن تستشفَّ سبب خصام عمّتها وأبيها؛ فقد كانت الفتاة ناضجةً بما فيه الكفاية لتستوعب ما لم يقولاه لهم صراحةً، ورغم الخصام المعلن فإنّ الاتصال بين عزيز وأخته لم ينقطع، لكنه قلّ وأصبح أقصر، شديد الرسمية، ومقتضبًا، ومثلما كانت تقول كريمة كان: "كلمة ورَدّ غطاها".

أما أنا فكنت في حيرةٍ من أمري؛ فأنا لم أرَ من قبل بيتًا فيه عائلة بلا أمّ. أعرف مدى أهمية هذا الدور، ولا أتصور أن الأمر يكون جيدًا في غيابها.

وجود النساء في المنزل يجعل الحياة منتظمةً ومستقرة، دافئةً باعتدال. وبما أنه لا يُمكنني بأيّ صورةٍ من الصور اعتبار أم الخير واحدةً من أولئك النسوة اللاتي أتحدث عنهن؛ فقد كان وجودها بالنسبة لي مثل عدمه، حتى فيما يخص تنظيف المنزل وطهي الطعام، بما أنه كذلك فكان ضروريًا أن تأتي امرأة إلى المنزل، تجيد شئون البيت وتدبيره بروحِ أمٍّ وعقلِ زوجة، لا لأنه عملها المفروض عليها كما أم الخير.

فكرتُ قليلًا في عرض سلوى لأخيها، يبدو لي منطقيًا.

لكنّ عزيز يرفض رفضًا قاطعًا، ويتحدث عن شيءٍ اسمه قلب، قال نصًا: "قلبي أُغلِقَ بعد موت سارة".

أتذكّر حديث البشر عن القلب فيما مضى، فقد أشارت له كاترين من قبل وقالت: "الوجع هنا في قلبي"، وذكره عبد

الحميد وهو يحادث صالح: "سيكون الحديد هذه المرة في قلبي". يذكر الإنسان القلب عندما يكون حزينًا ويائسًا، بينما كنت أنا طوال الوقت أظن أنه يمكن أن يسكن في القلوب الفرح أيضًا.

دخلت اليوم نادين على والدها بعد تناولهم وجبةَ الغداء، وهي تحمل بين يديها إطارًا صغيرًا به صورةٌ لامرأةٍ رقيقةٍ لها شعر سالي المجعّد، وكان شديد السواد كشعر شيرين، غير أن عينيها كانتا تشعّان ألَقًا كهذا الذي يخرج طوال الوقت من أعين نادين.

استطعتُ أن أدرك بفطنتي أن هذه الصورة تخصُّ سارّةَ أمّهم، وكانت نادين تحملها وكأنها تحمل عصفورًا صغيرًا كُسِرَ جناحه. بحثَت في الغرفة بعينيها عن أفضلِ بقعةٍ لتضع فيها الإطار، تودُّ أن تكون ظاهرةً أمام عينَي أبيها طوال الوقت.

فهي تخاف أن يستسلم لعرض أخته ويتزوج؛ فهي لن تستطيع تحمُّل وجود امرأة غير أمها بين أحضان أبيها.

سألها عزيز: "مَنْ أين أتيتِ بهذه الصورة؟ لم أرَها من قبل". كان يبتسم في مرارة.

أجابته وهي تقرّبها منه ليراها بوضوح: "أنا التي صوّرتها لها، كانت على هاتفي، لكني رأيت أنك ستسعد لوجود نسخة منها هنا أمامك طوال الوقت". ابتسم عزيز هذه المرة ابتسامةً أقل تعبيرًا؛ فقد كانت الدمعة المعلّقة بطرف عينه هي الأوضح. سارعت نادين بمسحها عن وجهه، وأردفت:

"هل تعرف أنني كل صباحٍ أنظر لهذه الصورة وألقي عليها السلام؟ هل أخبرك سِرًا؟".

فتح عينيه على وسعهما ليشعر ابنته بالاهتمام، فتحمست وأكملت: "أحيانًا أراها تومئ لي برأسها".

ضمّ عزيز ابنته بقوة وهمس في أُذنها: "أنا أيضًا عندي سرٌ أشاركه معكِ".

انتبهت عينا نادين في حماسةٍ شديدة، انتظارًا لسماعِ سِرِّ أبيها: "عندما أستيقظ في الليل أشعر بأمكِ نائمةً بجانبي، وعندما أتحسس الملاءة أجدها دافئةً وكأن شخصًا قام لتوّه من مرقده".

فغرت نادين فَاهَا عن آخرِه في دهشة، وسألت أباها: "هل يمكنني النوم هنا مرةً حتى أشعر بها أنا أيضًا؟".

فأجابها: "دعينا نجرّب بشرط: إن لم تستطِيعي الشعور بدفئها فلا تجزعي؛ فربما اختصّتكِ أنتِ بإيماءتها في الصورة، واختصّتني أنا بنومها بجانبي".

سألته صراحةً دون مراوغة: "هل ستتزوج في يومٍ من الأيام معلما ترغب عمتي؟".

أجابها مُطَمئِنًا: "ولا حتى في أحلامي".

وضعت نادين الصورة في غرفة أبيها معلما كانت ترغب، وعندما دخلت أم الخير إلى الغرفة لتنظيفها، وقعت عيناها على صورة سارة، والتي لم تكن تعرفها ولا رأت لها أيّة صورة

من قبل. رفعتها بعض الشيء وقرّبتها من عينيها وكأنها تتفحّصها، غير أنها فعلت ما لم أكُن أتوقّع أبدًا أن يخرج من هذه المرأة قاسية القلب منعدمة الإحساس: فقد وضعت قُبلة على الصورة، وقالت بصوتٍ مسموع: "يا ليتني مِتُّ أنا وبقيتِ أنتِ مع أبنائكِ تربيهم؛ فأبنائي لا يريدونني، وأبناؤكِ لا يستطيعون السير في حياتهم من دونِك".

أشفقتُ على أمّ الخير لما سمعت منها؛ فليس أسوأ من شعورِ أمٍّ أدركَت أنها لا تعني لأبنائها شيئًا.

كنتُ على وشك التعاطف معها، لولا أن رأيتُها تضرب القِطّ الكَشول بمنفضةٍ تُمسكها في يدها؛ لتخرجه من الغرفة. كانت قاسية، وربما لهذا السبب رفضها أبناؤها، أو ربما رفضها أبناؤها فأصبحت قاسية. دوّامة لا يمكنك داخلها أن تعرف ما الفعلُ وما ردُّ الفعل، تمامًا كمعضلة الدجاجة والبيضة.

الفصل العاشر

أيام قليلة وتنتهي إجازة عزيز، البنات أيضًا سيبدأن دراستهن قريبًا، ولا أحدَ يثق تمامًا في مقدرة أم الخير على رعاية شادي بمفردها؛ ليس لأيِّ سببٍ واضحٍ غير أنهم لا يستطيعون الاعتماد عليها.

كان عزيز يذرعُ الغرفة ذهابًا وإيابًا، متوترًا ويشعر أن وراءه شيئًا مهمًا، لكنه غير متأكد ما هو. إنها خطوة ويجب اتخاذها عاجلًا أم آجلًا؛ سيذهب للعمل، ويداوم على الاهتمام بوظيفته الجديدة التي لم تكن في خُطّته قَطُ؛ لأنه كان يحب السماء ويُفضِّل أن يبقى مُعلّقا بها للأبد. الآن أصبح مجبرًا على البقاء أرضًا بين عددٍ من الأوراق والملفّات التي لم يتعلم قَط كيف يتعامل معها.

اتصلت سلوى حين لم يكن مُنتَظرًا اتصالها، فهي منذ مدة تتصل مرة في اليوم صباحًا؛ لتلقي سلامًا باردًا ومتحفظًا، وتسأل عن أحوال الأولاد دون انتظار إجابة.

لكنها اتصلت مرة ثانية في هذا اليوم، فأجابها عزيز مضطربًا؛ فلا شيء يُخيف البشر غير اتصالٍ في وقتٍ غير معتاد: "هل أنتِ بخير يا سلوى؟".

أجابته أخته دون إظهار نواياها في البداية: "كيف أكون بخير وأنت أخي؟".

كان صوتُها مرتاحًا، لا يحمل أيّة إشارة تدعو إلى القلق،

فأردفَت: "ستضطر لأن تأتي لي بسيارتك كي تقِلّني أنا وأشيائي العزيزة كلها".

كاد عزيز يطير فرحًا، لقد التقط خيط دُعابتها: "ستأتي دون عودة؟".

أجابته مُحذِّرةً: "بشرطٍ إن نفّذتَهُ أتيتُ، وإن لم تُنفّذه فلن ترى وجهي أبدًا".

كان قلبه ينتفض من السعادة كطفلٍ عرف موعد رجوع أمه: "أي شرطٍ - إلا الزواج - سأنفّذه".

ضحكت: "تعلمتُ الدرس، وطلبي بعيدٌ عن موضوع زواجك".

كان لتبديلها كلمة شرط بكلمة طلب، وقعٌ مريحٌ على عزيز؛ فانتظر بهدوء حتى سمع منها كلمة "سريري". انتظر لتُكمِل، لكنها سكتت.

سألها في تردد: "أي سرير؟".

فقررّت أن تكون أكثر وضوحًا هذه المرة: "سريري الذي أنام عليه طوال حياتي، تنقله إلى بيتك. إما هذا، وإما لن أنتقل للعيش عندك".

وافق عزيز فورًا، ووعدها بترتيب الأمر، بل ووعدها بغرفةٍ خاصةٍ بها، لكنها أصرّت أن يشاركها شادي غرفتها.

كنتُ أشعرُ بغبطةٍ شديدةٍ تجاه سرير سلوى الذي تعلّقت به كل هذا التعلُّق؛ لدرجةٍ جعلتها تشترط انتقاله معها إلى

مسكنها الجديد. لم أكن أعرف أن البشر يمكنهم التمسك بالأشياء، كنت أظنهم يتعاملون معنا دون اكتراث، لكني سمعتُ في صوت سلوى اهتمامًا وتمسكًا وتعلقًا لم أكن أتخيله قطّ.

وفي اليوم المقرر لقدوم سلوى وسريرها، والذي كنت تَوّاقًا لرؤيته، ذهب عزيز والبنات ليقِلّوا سلوى ويساعدوها على جمع وحمل متاعها. غابوا بعض الوقت، وكان العاملون قد وصلوا قبلهم حاملين سرير سلوى، الذي كان يدخل إلى غرفة نادين، بعد أن خَلَت من أثاثها استقبالًا للعمّة، قطعةً تلو الأخرى، فيما تقف أم الخير على رأس العمال تأمر وتهلل وكأنها أعلَم الناس في هذه الدنيا.

وكان إزعاجها لهم أكبر من أن يتحمّلوه؛ فانتهوا من عملهم في أسرعِ وقتٍ ممكن، ورحلوا بسرعة ليتخلصوا منها، فلم يطلبوا كوبًا من الشاى أو حتى رشفة ماء. وأنا أظن أنه حتى ولو طلبوا فلم تكن لتأتمر بأمرهم ولو لامَست السماء الأرض.

عندما حضر عزيز وأسرته تعجّب من السرعة التي رحل بها العمال، ونفث في أسف لأنه كان يرغب في أن ينقلوا المهد أيضًا إلى غرفة سلوى.

لم تتقبّل أم الخير تلميحات عزيز بأنها بالطبع قد أزعجتهم؛ ولذلك لم ينتظروا إكراميّته التي وعدهم بها؛ ليضمن انتظارهم له حتى يصل، فدخلت وهي تدمدم: "سيجعل مِن نقل مهد، عُقدةً بلا حلّ".

حملتني منقلبًا فوق رأسها بهمّة وعصبية أخافاني، وبخطواتٍ سريعةٍ اتجهت نحو الباب بعنفِ أسدٍ ينقضُّ على غزال، ولم تلحظ أنني أكبر حجمًا من المرور من حلْق الباب، وبسبب قوة اندفاعها اصطدمتْ بقوة فتكسّرت أضلعي، تهشمتْ، تفتّتْ، انهرتْ تمامًا وما عاد لإصلاحي سبيل.

وعلى عكس ميلادي الهادئ، فقد كان موتي صاخبا بينما كانت حياتي تتأرجح بين هذا وذاك.

نظر الجميع في حسرةٍ تجاهي، بينما كان مروري الآن من الباب سهلًا، ووضعتْ أمُّ الخير ما كان لم يزل باقيًا مني في يديها، على أرض المنزل، كقتيلٍ فارقت روحُه جسده.

نظر عزيز إليّ وقال: "سبحان اللـه، كنتُ اليوم في المكتب فأتى الرجل الذي اشتريتُ منه السرير ليعالج ابنته بالخارج، وقد أتى بعلبة حلوى كبيرة للعاملين في شركة الطيران التي أعمل بها. علمتُ من الزملاء أن عملية ابنته كانت على نفقة الدولة بعد أن نشر أبناء أحد أصدقائه مشكلة ابنته على مواقع التواصُل الاجتماعي، وكانت شركتنا من أوائل المتبرعين قبل قرار الدولة؛ حيث أصرّت على نقل الفتاة والمرافق لها ذهابًا وإيابًا في درجة رجال الأعمال، وأن تُهيّأ لها كل المعدات الطبية التي قد تحتاجها أثناء السفر. كان قادمًا اليوم ليزفَّ لنا خبر شفائها، وعندما ذكّرته بنفسي طلب مني أن أُلقِي السلام على المهد، وها نحن جميعًا سنُلقي عليه السلام".

تم إلقائي في مَكَبّ نُفايات، وسط كمياتٍ هائلةٍ من الوَسَخ. كنت أختنق وأراجع قصتي: مَنْ أنا، ومَن أين بدأتُ؟ ما الذي آمنتُ أو كفرتُ به؟ من أحببتُ، ومن كرهتُ؟ ما الذي تعلّمته، وبماذا اهتديتُ؟ وما الهداية إلا راحةُ قلبٍ وعقلٍ. حتى لو كان لا زال عندي المزيد لأقدّمه، لأعلّمه، ولأتعلّمه، لكنّ أمر الإله نافذ ولا مَرَدّ له مهما حاولتُ.

كنتُ هائمًا أفكر في نهايتي، وإذ بي أشعر بيدين دافئتين تلملمان أجزائي. تأملتُ صاحبهما وهو يرفعني ثم يضعني في المقعد الخلفي. كان رجلًا وسيمًا في الثلاثينات، ومعه امرأة جلست بجانبه في المقعد الأمامي حيث كان يقود سيارته. وضحكت تلك المرأة وهي تقول: "صحيح، الفنون جنون". نظر إليها مبتسمًا: "كنت أحتاج لبعض الأخشاب لأصنع منها صندوقًا أجمع فيه ريشات الرسم والألوان؛ حتى تتوقفي عن تذمُّركِ من الفوضى التي أخلّفها في منزلكِ".

رفعت المرأة أحد حاجبيها وقالت: "فكرة جيدة، وإن تبقّى بعض الألواح فسأكون سعيدة بأن تصنع صندوقًا آخر أجمع فيه مستلزمات جَزوِي الحبيب".

أجابها: "تقصدين جَزوَكِ المُدلّل".

وخزته في كتفه اعتراضًا على ما قال، وضحك كلاهما..

وعلمتُ أنا أن الحياة آن لها أن تبدأ من جديد.

تَـمّت

المؤلفة في سطور

مي حمزة

مواليد القاهرة 12 ديسمبر 1984، تخرّجت في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية قسم إنجليزي بجامعة القاهرة عام 2007.

تقلّدت العديد من المناصب في شركات أجنبية في مصر وخارجها في مجال التسويق والإدارة.

تُعدُ رواية "لأجلِ تلك الليالي"، الصادرة عن دار الرسم بالكلمات، هي باكورة أعمالها الأدبيّة.